
بقلم
دكتور ابرهيم عبده
الناس معادن

النَّاسُ مَعَادِنَ

بقلم

الدكتور ابراهيم عبده

١٩٦٠

الناشر
مكتبة الآداب بالجماميز ت ٤٢٧٧٧
وسجل العرب ت ٤٩٩٩٩

القاهرة
مطابع دار الكتاب العربي بمصر
محمد حلمي المنياوي

هذه ذكريات لا مذكرات منشورة بغير ترتيب أو حساب عن المجتمع وناسه فى نحو أربعين سنة ، حافلة بكل معادن الدنيا فى شئون السياسة والعلم والادب والفن ، وسترى بين هذه المعادن معادن أشك أنها مرت بأى مجتمع أو عرفت فى أى زمان ..

ابراهيم عبده

إهـداء

الى تلك التى أفزع اليها فترطب قلبى نضارتها .. ..

الى صاحبتى الخيرة التى ما أكرمتهـا الا وردت الجميـل مضاعفا .. ..

الى الصامتة التى طوت لسانها فما نطقت بشر .. ..

الى التى انحنت على أطرافها وتثنت أعطافها تربت على رأسى كلما دخلت فى أحضانها ، وكأنها تمسح عن قلبى ونفسى ماخلفته المدينة من شرور وسوءات ...

الى أرضى الطيبة التى ترقد فى بطن الهرم ، وتلقانى بسامة الثغر ، مزهرة مورقة ، وتعلمنى كلما زرتها كيف يكون السلام بعيدا عن الدنيا .. .. من أهل وناس !

مزرعة الدكاترة

سبتمبر ١٩٦٠

١

كان هذا الرجل أعظم الرجال عندى .. .. انه قدوتى ومثالى انه الالهـام الذى وجه حيـاتى ، والنبراس الذى مضيت على أضوائه وخطوت على نوره .. ..

كان صبيا فى الثالثة عشرة من عمره حين مضى أبوه الى ربه ، وترك له بيتا أشبه بالخصاص به (حاصل) وفرن وبغل وقيل حمار ! ثم ترك له فيما ترك ارثا تنوء بأثقاله الصبية الصغار ، أما ثكلتها المحنة ، وأشقة كثر دونه فى السن والادراك ...

ومضى الصغير اليتيم يقـوم مع الفجـر ويمضى الى أعمـاق الريف وقد حملت بغلة أبيه قماشا زاهى الالوان ازدحم به خرج البغلة وتدلى على جانبيها فى رفق ونظام .. .. ..

سنوات والفتى الصغير يمضى مع فجر كل يوم من مدينةبنها الى ريفها العميق ، شمالا وجنوبا ، وشرقا وغربا ، ثم يعود مع الليل وقد خوى الخرج مما فيه .. ..

بقى جهاد ذلك الصبى على هذا الغرار حتى شب عن الطوق ، ويسر الله له من الرزق الحلال ما أحال عرقه الى ذهب وفضة ، فاستقر فى المدينة الجميلة وأصبح له فيها متجر كبير .. ..

كان هذا الرجل نظيف الذمة صادق الوعد ، وما استقامت أمور التاجر ان لم يكن رأسماله أمانته وصدقه .. .. هـكذا قالت

الانباء منذ قديم ، قالتها فى الناس وفى الرسل ، فالتجارة مهنة لا يصيب فيها الا صادق أمين .

واشتهر الرجل بسماحته وقلبه الكبير ، كان يمسح عن الصحب والاهل مانزل بهم من بلاء وأرزاء ، ويصبر فى الحياة على كل ما فى الحياة من عقد وعنت وضيق ، ويسوسها فى هوادة القادر على حل العقد وتدبير الامور

لقد راقنى فى الرجل كل هذا ، وحاولت أن أكونه ، وأحقق لطبعى من طبعه قدرا أواجه به الدنيا كما واجهها ، وأبلغ به مابلغه هو من التوفيق والسداد

لايعنينى فى سيرة هذا الرجل — أعظم الرجال عندى — أنه أثرى وملك أعظم رتب زمانه ، وتجاوز صيته الشرق والغرب ، فكل ذلك دهان الحياة وطلاؤها ، وليس فيه من معادن الرجال شىء يقوى على الزمن أو يسيطر عليه

ان أعظم الرجال عندى ، كان مجاهدا فى وطنه وأهله وصحبه ، وكان فقيرا ذا عيال ومسئوليات ، فلم يقفه الفقر عن السعى الحثيث ، ولا عرف فى المسئوليات الفرق والخوف ، ولا استند فى كفاحه الى بيت قديم أو اسم كبير الأب أو عم أو خال ، ولا غرته الدنيا حين أقبلت عليه بغير حساب ، ولا حبس عن انسان يدا استطاعها ، ولا شاقته فى الرزق الواسع متعة من تلك المتع الصغيرة التى تلفتنا عن واجبات الرجولة والتزامات الرجال

لقد عاش ــ أعظم الرجال عندى ــ متفانيافى عمله وهى أجمل الخلائق فيه ، مؤمنا بطيره ، مؤديا واجباته نحو دنياه وآخرته ، لم تؤثر عنه خلة تشكى أو صغيرة تروى ، أو غلطة تحسب عليه

انه سيرة فى (بنها) يتناقلها الناس كأنها العطر والطيب ، وانى لأنصت اليهــا وفى عينى دموع الفرح والاعتزاز بالسيرة التى مضى صاحبها ولكل بنهى فيها حق ونصيب

ان لى ــ بأعظم الرجال عندى ــ صلة ونسبا ، انه أبى .... أبى الذى مات عنى وأنا جنين لم أعرف الدنيا ، فلما عرفتهــا ، عرفت فيهــا أبى ، فجعلته قدوتى ومثالى ، وجاهدت ولا أزال أجاهد لاكون بعضــه ، فانه معــدن نادر بين معــادن الرجال ، وهيهات أن نكونه ! وقد صنع نفسه ، ونحن قد عشنا ــ الى مدى بعيد ــ على سيرته ، وتعلقنا بأذيالها ، ولا نزال نحيا فيها كلما تحزب الامر أو ضاقت بنا السبل ....

٢

كان خالي يعمل مهندسا للري ، وكان بيته في شبرا البلد ، وكان سيد شطا المطرب ، صديقه الحميم ، لا يفترقان الا حين يجرى خالى على الجسور وخاصة وقت الفيضان ، أو يدعى سيد شطا الى احياء فرح أو يقوم بالغناء فى روض الفرج .

وكانت أمى تعيش مع خالى الذى كانت طرائقه في تناول الحياة أشبه بطرائق العصور الوسطى ... ليس هناك حساب معلوم للطعام ، فالبيت يعج بخصاص (عشش) الطيور وكل يوم يذبح منها (طورة) أو طورتان حسب الظروف بجانب أرطال من اللحم لايعرف لها حساب ! فأن البيت مفتوح لكل قادم أو عابر سبيل ، والجزار على الباب ورطل اللحم بقرشين ، أو ثلاثة قروش ان (شفوه) من (الشغت) والعظام !.. ..

وكان خالى رجلا كريما ، لم يكن يبخل على أمى بأحسن ما يملك من طعام وكساء ، فهى التى ربته وجعلت منه مهندسا تفاخر به الدنيا ! وكان هو يوقرها توقيرا عجيبا ، اذ كان يصيبه الحرج ان رأت فى يده سيجارة يدخنها ، وكان يقف حين تقبل عليه ، وكان يقبل فى الصبح يديها ظهرا وبطنا ، ورأيتها مرة غاضبة ، ورأيتها تصفعه على صدغه الايمن فيدير لها صدغه الايسر .

رأيت المسيح في خالي ... وفرحت أنهذه أمي ، فقد كانت

لى حماية حين أخطىء أو أحيل البيت الى صخب وفوضى ، فقد كنت مدللا لانى وحيد أمى ، خرجت بى من الدنيا قريرة العين ، فكل شىء راح منها وبقى لها خالى يرعاها وأنا أسعدها وأملأ عليها فراغ الحياة .. .. ..

لقد كنت فى حيـاة أمى كل شىء فى حياتهـا .... جئت الى الدنيا بعد أن فقدت أبى وكان لها سندا وصيتا وأبهة ، وجئت بعد أن مات لها أكثر من ولد .

ومع أن أمى نبت علم وفقه ، اذ كان أبوها أديبا يقرض الشعر عربيا وفرنسيا ، وكان عمها كأبيها حسا وفهما وأدرى منه بالدين والفقه ، فانها كانت لا تقرأ ولا تكتب ، لذلك آمنت بالاحاجى والتعاويذ ، فبقيت سنوات وخصلة من شعرى تلتصق بها خرزة زرقاء ، وصدرى يتدلى منه حجاب !

وكانت أمى ترعانى مشدودة الاعصاب ، فقد تركت فى قدمى خلخالا ذا جلاجل من ذهب حتى اذا غبت عن عينيها نبهها الخلخال وبصرها بمكانى فتخف الىّ فى جزع الملهوف ولهفة الأم العطوف ..

وكان جسمى ضئيلا ، وكل أمراض الطفولة عرفت طريقهـا الى هذا الجسم الضئيل ، وكان أكبر أطباء الاطفال فى زمانه يرعانى ويطب لى ، ولم تقنع أمى بطبـه ونصائحـه ، بل أصغت بالمودة الى توجيهات القريبات والناصحات، فكنت اذا إستحممت حجزتنى فى حجرة النوم يوما حتى لا أصاب بالبرد ! واذا عطست

لايدخل بيتنا البيض والسمك !! وكانت تدفع الى بطنى بالموغات والمفتقة والحلبة حتى (ترم) جسمى الضعيف ، بجانب ما أوصى به الطبيب من مقويات ، وهى (مستحلب سكوت) صيفا وزيت السمك شتاء .. ..

ورتبت أمى امرأة (لحاسة) تمر ببيوت الذوات (تلحس) أطفالهم مادة هى خليط من الطحينة والعسل الاسود والبن وأشياء أخرى ، تغمس فيها السبابة والوسطى من أصابعها وتدفع بهما الى حلقى ، وتمر بهما على هذا الحلق ضاغطة حتى أكاد أقىء أو أختنق .

وقيل أن التلحيس خير وقاية لامراض الحلق ، وقيل انه وقاية من الالتهاب السحائى ، وقيلت أشياء أخرى لا أدرى الصحيح منها وأن كانت أمى قد آمنت بها ايمانا .

وكلما سمعت أمى (وصفـــة) تزيد الوزن وتجرى الدم فى الوجه عمدت اليها من أجلى ، وأقبح ماسمعت من وصـــفات (حلاوة بلادنا) وهى مادة من تفل السمسم يسمونها (الكسبة) كريهة الرائحة مرة المذاق ، كانت تأمر بشرائها من عربة يد تمر ببيتنا وقد وضـــع البـــائع (حـــلاوة بلادنا) على شكل هرمى جميل .. ..

ان أسماء الاضداد فى مصر شىء عجيب .... ان بلادنا لم تنتج مرا وعلقما مثلما أنتجت حلاوة بلادنا !!....

ولما أكملت دراستي فى الكتاب وانتقلت الى المدارس الابتدائية، كنت أقرأ الصحف وروايات طرزان ومجلة الاولاد ، وأراجع كل مطبوع لف به البقال شيئا لبيتنا ، والحق أن خالى كان يفرح لهذا كل الفرح ، وما كانت فرحة خالى لأنى قارىء قد تفيده القراءة ، بل كانت فرحته لانى سأشغل عن الضجيج والصخب وسيهدأ البيت من (شقاوتى) التى تحيله عادة الى جهنم بما فيها من صراخ وفوضى وعويل .

كان ذلك كله سنة ١٩٢٥

وكنت أذهب الى سينما أولمبيا فى شارع عبد العزيز أو الى سينما المنظر الجميل فى الظاهر يوم الخميس من كل أسبوع ، وكان هـذا شيئا ادًّا لايسيغه خالى فى شبرا البلد ولا أهلى فى بنها العسل ، وكانت أمى تعجب لامرى .. كيف أطيق الذهاب الى السينما أكثر من مرة فى حياتى ؟ ولم يقنعها أن تعلم أن روايات السينما تتغير أو أن فيها حلقات كل أسبوع حلقة وأن (ماشيست) رواية طويلة وزع عرضها على أكثر من أسبوع !.

لم تكن أمى متزمتة تزمت خالى وأهلى ، ولكنها كانت تخشى شيئا واحدا ... أن تسىء السينما الى عينى ، بيد أنهـا كانت تعالج الامر بحصافتها فتضع فى عينى بعـد عودتى من السينما (شُشُم الديك) ليجلوهما ويمسح عنهما ما خلفته السينما من متاعب !....

والصحيح أن أمى كانت حصيفة ، فقد كانت السينما تهز أعصاب العيون فى ذلك الزمان ، لأن الصور حين كانت تتحرك على الشاشة كانت تهتز اهتزازا عنيفا ، وخاصة فى روايات شارلى شابلن ، وكان سيد الموقف فى دور السينما فى جميع أنحاء العالم ، وكانت عيوننا تصاب بحرقان بعد كل عرض ، وكان ششم الديك علاجا بديعا للعيون مهما تكن فيه من نار ...

وقد أغريت أمى أن تذهب معى الى السينما مرة ، ووافقت بعد الحاح شديد ، وقرأت عند مدخل الباب الفاتحة وبعض آيات أخرى من القرآن الكريم ، ودعت لى بالعمر الطويل والخير الوفير ، فقد علموها أن الله سبحانه وتعالى يستجيب عادة للدعوات عند زيارة عبيده لاى مكان جديد ! .. ..

وخرجنا من السينما وأمى أشد وثوقا بعقيدتها فى عقلى الفارغ الذى يحتمل الذهاب الى السينما مرة كل أسبوع !.. ..

لقد عرفت بين أهلى بأنى ولد تلفان ، مدلل ، خسران ، لاننى أغشى السينمات وأذهب اليها علانية بلا حرج أو خجل أو خوف ذلك لان السينما تفسد الخلق وتضيع الوقت ، وأنا تلميذ مهيأ للحصول على الشهادة الابتدائية ، وكانوا يقولون اننى لن أفلح مادمت من رواد السينما ! وكيف يستقيم النجاح فى الشهادة الابتدائية والذهاب الى السينما كل أسبوع ؟!....

ولكننى نجحت فى الشهادة الابتدائية ، وكان نجاحى بتفوق ،

وزغردت حرم خالى ، ووزع زوجها الشربات علي أولاده السبعة وعلى الجيران والجزار والبقال ، وجاء سيد شطا وغنى وسمح لى أنا وأولاد خالى السبعة بالبقاء معظم الوقت فى الحجرة التى كان يغنى فيها سيد شطا احتفالا بنجاحى

وأعطتنى أمى واحدا وخمسين قرشا ، القرش لاركب به ترام رقم ٨ ذهابا وعودة ، والخمسين قرشا لاشترى بهـا (ملبس) لاولاد خالى وأبنـاء الجيران اعترافا بجميل فرحتهم لنجـاحى ، واشتريت الملبس ، وبدأت أنظر اليه بحسرة ! ..

وكعادتى أخرجت نفسى من صدرى ، وتناقشنا ، ألست أنا الوسيلة التى من أجلها جاء هذا الملبس ؟ ألست أنا الذى نجح فى الشهادة الابتدائية ؟ أليس من العـدل أن يعترف لى بجميل الفرحة التى عمت الجميع ؟ فاذا كان هذا صحيحا وهو صحيح ، أليس من العـدل أن يكون لى فى هـذا الملبس نصيب بل أوفى نصيب ؟

وأعدت نفسى الى صدرى حين تم التفاهم بيننـا ، وبدأت أتسلى بالملبس واحدة بعد الاخرى ، حتى اذا بلغت البيت كنت قد أتيت على معظمه !.

وغضبت أمى ، وساء الجميع تصرفى الا سيد شطا فقد كان فنانا ، وكل فنان منطيق ، لذلك أعجبه منطقى وبارك فعلتى ، وقال بالهنـا والشـفا ... وغناها على العود مع بعض الكلام

الفارغ الذى لا أذكره ، وانما أذكر أنه أحال ضيق الجميع الى جو من السرور والحبور .

اذا كان نجاحى فى الشهادة الابتدائية شيئا عظيما فى أسرتنا سنة ١٩٢٥ فمرجع ذلك أن أهل بيتنا فى بنها العسل ، وأهل أمى فى القاهرة ، لم يعتادوا أن يشغلوا بالهم بالعلم الا أخيرا حين ضاعت الثروة الضخمة الخيالية التى تركها أبى النـا ، وضاعت ثروة أمى فى القاهرة أيضـا ، وأصبح تعليم أبناء الاسرة هـو الوسيلة الوحيدة لمواجهة الحياة والسيطرة عليها ، فاذا حصل واحد من أسرتنا على الشهـادة ، أية شهادة ، كان ذلك حدثا عظيما ، وقد استمر الايمان بالتعليم فى أسرتنا يقـوى على مدى الزمن حتى أصبحت القاعدة فيها الآن تعليم بنيها وبناتها الى أرفع درجات التعليم .

فى أسرتنا اليوم نحو مائة رجل وامرأة ، أنا عمهم أو خالهم ، وكلهم أهـل علم ، ومنهم كثيرون يحملون درجة الدكتوراه فى العلوم والآداب والطب ، ومنهم علماء كتبهم وآراؤهم مراجع فى هذه الميادين ....

اننا أبناء رجل عاش مجاهدا .

لقـد فرح بنجـاحى كثيرون من غير أهلى ، فرحت به أسرة الشاهد ، أولاد لبيب (باشا) الشاهد ، محمود وصلاح الشاهد، أعز من عرفت من الصحاب ، وأكرم من صاحبت من النـاس ،

أصـــدقاء العمر من سنة ١٩٢٢ فى مدينة الخرطوم ، الصاحبان اللذان صـــيغا من ذهب ، وبقيت مودتهما لى وســـط الأنواء والاعاصير ، وكبرت تقساهما على الانواء والاعاصير ...

حقا .... رب أخ لم تلده أمى !....

كنا فى الخرطوم لانفترق ، وذات يوم ألفت — وأنا صبى — قصة مثلناها على مسرح أقمناه فى بيت الشاهد ، ولقينا من أب الصاحبين تشجيعا ما بعده تشجيع ، لم يقتصر هذا التشجيع على أنه أذن لنـــا باقامة مسرح فى بيتـــه ، بل انه كضابط عظيم فى الخرطوم بذل نفوذه ليحضرنا سائر الضباط ونحن نمثل .

ومنذ ذلك التاريخ ونحن نمثل القصة التى ألفتها فى ســـاعة الهام ، ولم يقف دون أى واحد منا فى أداء دوره الا الموت ، وما أبغض الموت حين يدق باب من جمعتهم آصرة أقوى من أواصر النسب والدم ! ..

كنت فى الرواية أستاذا فى مدرسة العلمين العليا ... وبعـــد ثلاثين سنة كنت أستاذا فى جامعة القاهرة !..

وكان محمود الشاهد يمثل دور طبيب أسنان ، ومات الصديق الحبيب وهو من أكبر وأعظم أطباء الأسنان فى مصر ..

ومثل صلاح الشاهد دور أبناء الذوات .... وكان وسيما أنيقا لا يسير الا بحساب وفرض عليه الدور أن يكون باسم السن حلو الكلام ، مواتيا ، مخلصا لمن يلقى من الناس رؤساء ومرءوسين ،

وبعد ثلاثين عاما كان صلاح الشـــاهد تشريفاتى رئاسة مجلس الوزراء ؟!..

ومثل ثلاثة من الزملاء الصبية أدوارهم التى شغلوها بعـد ثلاثين عاما ، وكأنى كنت أكشف عن الغيب ، فقد أصبح واحد منهم مدرســا فى الدولة ، وثانيهم موظفا فى السكة الحــديد ، وثالثهم مفتش أتوبيس ؟!....

كانت هذه وظائفهم على مسرح الشـــاهد فى الخرطوم ســنة ١٩٢٣ وكانت هى وظائفهم على مسرح الحياة سنة ١٩٥٢ .

لقد فرح محمود وصلاح بنجاحى فى الشهادة الابتدائية ، فهى علامة على أن الحساب يبدو دقيقا ، فان بعد الابتدائية شــهادة الكفاءة ، وبعد هــذه الشهادة البكالوريا ، ثم المعلمين العليا ، فاذا صحت النجوم معى فما يمنعها أن تصدق أيضا مع الصديقين الحبيبين ؟

كان يوم نجــاحى خمرا ، الا أن الايام التاليــة كانت ذات أمر ! ...

ماذا بعد الشهادة الابتدائية ؟

وانعقد اجماع الاسرة على الحاقى بمعهد هو ألطف المعــاهد وأخفها ... مدرسة التلغراف ! ... ستة شهور التعلم المهنة ، ومن ثم الوظيفة حاضرة وجنيهاتها الستة راتب مرموق فى ذلك الزمان !

رحب بذلك أهلى فى الريف والحاضرة ، فتلك مدرسة بلا تكاليف ، ورحبت آمى بالدرسة ترحيبا قويا ، فهى تريد أن ترانى موظفا فى الحكومة والى جانبى زوجة وأولاد ، وهى أمنية ترجو أن تتحقق لها قبل أن تموت ...

وما كان يعنينى اقناع الأهل بما رسمه القدر لى وآمنت أنا به ، انما كان يعنينى أن تصغى الى أمى ، فقد حدثتها بأمانى فى الحياة فبكت لان تحقيق الامانى يحتاج الى مال ، وحدثتها أن سنى لا تسمح بالزواج أو انجاب العيال ، فبكت لانها تخشى أن تموت قبل أن أكون زوجا وصاحب عيال ! ...

وقالت أمى تغرينى بمدرسة التلغراف وما فى أعقابها من خيرات : قالت ان قلبها يخفق كلما نظرت من النافذة الى جارنا محمد افندى الموظف بالمعارف وهو عائد من وظيفته فى حمارة القيظ يستظل بالشمسية ويحمل فى جيبه الايسر جريدة الاهرام ، ويحتضن الى صدره بطيخة تملأ قلوب أولاده فرحة وهم يخفون اليه ليحملوها عنه سعداء مقرورى العيون ؟ !

كانت أمى تنعجل الزوجة التى تنهج نهجها مع أبى ، تقوم على خدمتى وترعانى كأننى طفل دللوه ، كانت تريد أن تراها يقظى مع الفجر تميل على يدى تقبلها ثم تجرى الى الحمام فتحمل الطشط والابريق لاتوضأ أو أغتسل ، ثم تقف الى طعامى تزققنى ، ثم تودعنى الى عملى بالكلمة الحلوة داعية ربها أن يجعل لى فى كل خطوة سلاما .

ثم تقول أمي معتزة بما تقول : كنت اصنع هذا لابيك ، وكان أبوك رجلا مهـذبا لا يترك البيت الا بعد أن يقبـل يدى كأنه يشكرنى أو يعترف بالجميل ! ...

وأخذت أنا والشقيقان محمود وصلاح الشـاهد نتملق أمى ونترضاها ونزعم أنها زينة الشباب ، وأنها فى نضرة الحسان تزرى بجمال ألف بنت من بنات اليوم وأن ذلك كله ينبىء عن طـول العمر ، حتى نصرفها عن هذا الطائف الثقيل الذى يلح عليها أن تزوج ولدها الوحيد قبل أن تموت ! ...

وبكت أمى مرة ثالثة لأنها مذعورة من أفكارى وأحلامى التى سيطرت على قلبى ونفسى وعقلى جميعا ... أن أتعلم حتى أصبح أستاذا فى مدرسة المعلمين .. وأين لى هذه العنقاء وأنا لا أملك تكاليف المدارس ولا كساءها ولا التزاماتها الكثار

وقال الصديقان محمود وصلاح : ماذا لو قابلت وزير المعارف، فانك لقادر على أن تنتزع منه قرارا بأن يلحقك بأية مدرسـة تجهيزية ؟ ...

نحن فى صيف ١٩٢٥ والحكومة تصطاف فى الاسكندرية اذ تكون الحكومة عادة حيث يكون الملك ، والملك فؤاد يبكر فى الاصطياف ويستأخر فى العودة حتى يكاد الخريف أن ينصرم ، وهـذه عقبـة لأصـحاب الحـاجات عنـد الوزراء والوزارات ، وحاجتى ملحة والمجانية لا تشفع فيها الكفاية أو

الامتياز وحدهما بل لابد أن يسعى الطالب وهو عادة ولى أمر التلميذ الى هنـا وهنـاك ، يبذل ماء الوجه تارة أو يدفع من جيبه تارة أخرى أو يدفع شيئا أغلى من هذا وذاك ؟ ! ...

وكان المفروض أن التعليم حسب نص الدستور حق لكل مواطن ، الا أن الواقع كان غير ذلك ، اذ أن هـذا الحـق كان للأغنياء وحدهم ، والمجانية تمنح بالسعى على النحو الذى أشرت اليه .

ولم يكن لى ولى أمر يسعى هذا السعى أو ذاك ، فكان لابد من أن أعتمد على نفسى ، ولم أكن قد زرت الاسكندرية ولاأعرف الطريق اليها ، ولم يكن جرمى وهو دقيق كالطيف ولا ملبسى وهو البنطلون القصير يوحيان بمقدرة تنتزع المجانية من وزير ...

وضربت فى الأرض حتى بلغت محطة القاهرة آخر الليل لاركب (المستعجلة) الى الاسكندرية ، وهو قطار سخروا من بطئـه فنعتوه هذا النعت ، اذ أنه يقطع المسافة بين العاصمتين فى سبع ساعات وغيره يقطعها فى ثلاث ! ...

وركبت المستعجلة فى الدرجة الثالثة ، وبلغت الإسكندرية مع الصبح ، وسألت عن بولسكلى حيث ينزل الوزراء ، وكان حى الوزارات فى بولسكلى مكانا ضيقا ، نال كل وزير فيه حجرتين ، حجرة له وحجرة لرجال مكتبه ، وكنت قد تزودت بأوراق رسمية تثبت أننى ابن رجل بنى المدارس وأهداها للدولة ، وأن من حقى

على هذه الدولة أن تعلمنى ، وانني جئت للوزير غير متسول ، بل أقبلت عليه اقبال صاحب الحق

وكان سكرتير الوزير شابا لطيفا غير أنه حرفى — وهو اليوم مستشار كبير — أبى أن يدخلنى الى الوزير ، غير أننى أصررت على لقائه ، فلما أذن لى بالدخول بكيت ولاأدرى لماذا بكيت وأنا مقتنع بأنى صاحب حق ، حق أبى على الدولة ، وحق تفـوقى فى الشهادة الابتدائية وحق المواطن العادى الذى كان يظن أن فى مصر دستورا يبيح للمصريين أن يتعلموا .

وكان لقاء الوزير حلوا ، وخرجت من عنده أحمل توقيعـا يسمح لى أن أتعلم بالمجان فى المدرسة الخديوية .

٣

أتممت دراستى الثانوية فى جو اجتماعى وسياسى لم يكن لى به عهد ، فأنا تلميذ فى سنة أولى ســـادس بين ثمانية وعشرين تلميذا ، منهم خمسة من أبناء الباشاوات وأربعة عشر آخرون من أبناء البيكوات ...

كان فصلا مختارا حسب تقاليد العصر وطقوسه ...

ومع ذلك اشتهر فصــلنا بأنه دون الفصــول أدبا وتأدبا ، وكنا مكرة ملاعين وخاصة مع الدكتور سرفيه أســتاذ اللغــة الفرنسية ، وأستاذى اللغة العربية والدين ..

وقد كان ضرب التلاميذ وسبهم ممنوعا على الاساتذةوالمعلمين، ولكن فعالنا أباحت لكل معلم أن يضربنا ويسب آباءنا ويقــرنهم بالكلاب والحمير ! ... وكان من بين زملائى ابن وزير المعارف زكى (باشا) أبو السعود وابن عبد القادر (باشا) الجمال كبير تجار القاهرة ، وغيرهما من أبناء السادة الذين يشار اليهم كلما ذكر اسمهم بين أعلام المصريين ...

وكنا نفتن فى الوقاحة وسوء الأدب !

كنا نحشر أسنان الريش فى أدراج مكاتبنا ونهزها فتجىء لها

أصوات تهز أعصـــاب المدرسين ، كما كنـــا نطن طنين الذباب جماعات وأفراد ، وقد ارتكبت هــذه الفعلة السيئة فى درس الدكتور سرفيه ، وتساءل الرجل ساخرا : أين الشـــجاع الذى تحـــول الى ذبابة ؟ ! ودون أن أدرى أجبت ... أنا ! ... فصافحنى الرجل وأكبر شجاعتى ومنحنى أعلى درجات الاخلاق فى كراسته ! .

وتساءل جارى فى الفصل ـــ ولا أذكر من اسمه الا الطحاوى ـــ وكان جاهلا باللغة الفرنسية لا يعرف فيها حرفا ، سألنى عن التحية وأسبابها وعما كتبه الاستاذ فى كراسته ، فلما ذكرت له جزاء شجاعتى قلدنى فورا ، غير أن الدكتور سرفيه منحه صفرا فى الاخلاق وأوصى بحبسه ثلاث ساعات ؟ ! ...

وكان فصلنا أيضا فصلا ممتازا بالكفايات المبكرة وأصـــحاب المواهب اللماحين ، وأذكر أن نتائج الامتحان أثبتت أن المـــكرة الملاعين كانوا قدوة لسائر فصول السنة فى التفوق والتبريز فى شتى العلوم ...

وكنت مع سبعين تلميذا فى القسم الداخلى،لم تمض أيام حتى اجتمعت النا صحبة لم تنفصم عروتها منذ سنة ١٩٢٥ الى اليوم ، ولا يزال الحب الذى جمعنا يسيطر على قلوبنا وصدورنا ، ومن بين الاصحاب الذين ما تقطعت حبال مودتهم قط حسن محمـــود العضو المنتدب لشركة مصر للطيران والدكتور محمد أحمد سليم

المهندس العالمى المعروف والدكتور محمد على هدايت أستاذ الجراحة بالجامعة ، وأبو بكر نور الدين الاقتصادى المعروف وكما نسميه الصديق ، فقد كان – ولا يزال – على رأس النخبة المنتقاة والصفوة المرتجاة ممن أثرت عنهم الفضائل وتعطرت سيرتهم بأجمل الشمائل ...

وانا نجتمع اليوم وصفاء القلوب كصفوها يوم التقينا بسراويلنا القصيرة سنة ١٩٢٥

والمدرسة الخديوية لا تزال تعيش فى عين الزمن ، لا ببنائها القديم أو الحديث ، بل بهذه الشخصيات التى تملأ فراغ الدنيا بكل صالح ومفيد

وكان جوا اجتماعيا غريبا ذلك الذى خلقه فى المدرسة أول ناظر مصرى لها ، وكانت القاعدة منذ قديم أن يكون ناظرها من الانجليز ..

وقد التحقنا بالمدرسة الخديوية على أول عهدها بناظرها المصرى محمد لبيب الكردانى ، وكان فخما ضخما جهورى الصوت أنيقا رقيقا ، وقد بدأ يعلمنا كيف نأكل بالشوكة والسكين ، ويشعرنا أننا أسرة واحدة ، يراقب طعامنا ودراستنا ، وينظم أمورنا كأننا بعض ولده ، وكنا نخافه ونخشاه ، كما كنا نحبه ونسعى الى رضاه .

وكانت مصر تعيش فى تلك الفترة فى قلق سياسى عجيب ، وكان

كل تلميذ منا يمارس السياسة ويشغل وقته بها ، وكنا نخرج فى المظاهرات هاتفين للدستور وسعد زغلول بوحى من عواطفنا دون تفكير أو تدبير ، وبعد موت سعد اختلفنا فى الرأى وان لم يؤثر ذلك على مودتنا فى قليل أو كثير .

لقد كان حبنا لمصر كبيرا ، وكانت قلوبنا لا تعرف الا كل احساس جميل

ومضيت أنا مستغلا الانوار المضاءة فى عنبر النوم بحكم القانون ، أقرأ وزملائى نيام ، فقرأت المنفلوطى وطه حسين وعباس العقاد وقاسم أمين ، كما كنت أقرأ الصحف كالأهرام والبلاغ والعلم والسياسة الاسبوعية والبلاغ الاسبوعى وغير ذلك من كل منشور عميق ، وبدا أثر ذلك واضحا فى كراسة الانشاء العربى فقد كنت أنال فى كل موضوع انشائى الدرجة النهائية ، أى عشرة من عشرة .. وان كان الاستاذ يصر على تسجيل تخفيض يتراوح من درجة الى ثلاث درجات لقلة أدبى أثناء الدرس أو لاتيانى بفعل ذميم !! ...

وبدا أثر ذلك واضحا أيضا حين تقرر أن يكون أعضاء لجنة مجلة المدرسة من ذوى الكفايات بعد امتحان فى التحرير عسير ، وتقدمت فيمن تقدم وكان ترتيبى الاول غير أنهم رجعوا عن قرارهم ونحونى عن الرئاسة والعضوية وقصروهما على تلاميذ السنة الخامسة ، ولهم وحدهم الصدارة فى كل أمر وتدبير ...

امتلأت غيظا وحنقا ، وأخذت أطالب بتطبيق دستور البلاد فى كل أمر صغير أو كبير ! وانه لابد أن يكون رئيس القسم الداخلى منتخبا ، وأن تكون كل لجنة فى المدرسة من وحى الانتخاب أو بناء على امتحان يثبت جدارة من هو بالحق جدير .

وتألف رأى عام قوى بين الزملاء يؤيد رأيى ويجاهد من أجله ، وعاقبتنى المدرسة بأن طردتنى من القسم الداخلى ، فاذا وجدت أن آرائى قد انتقلت الى القسم الخارجى تقرر نقلى الى مدرسة أخرى ...

وقابلت الناظر وناقشته وكان — كما قلت — أبا رحيما مستريح الصدر كبير القلب ، فراقه منطقى الذى دعا الى المواءمة بين سلطان المدرسة والحقوق المرجوة التى تضطرم بها نفوس التلاميذ ، فكان للناظر حق تعيين رئيس القسم الداخلى وللطلبة انتخاب السكرتير ، وكان للمدرسة حق تعيين رئيس تحرير المجلة وللامتحان حق تعيين أعضائها مهما تكن أسنانهم ، ومهما يكن مقامهم فى سنوات التحصيل !

وعدت الى المدرسة ، والى القسم الداخلى ، وعدت الى الصحاب الذين ماشعرت قط أن لاحد فى نفسى مقاما يعلو مقامهم رغم الظروف وكر السنين ...

وفى تلك الاثناء مسنى هذا الملك الرفيق الخالد الذى يسمونه الحب ، وأذكر أن حيائى منعنى حتى من أن أذكر الصاحب شيئا

عن هذا الذى ينساب فى قلبى وحسى ، وبقى هذا الحب رفيقا ، صادقا ، عميقا الى أيام الدراسة فى الجامعة

كلما عدت الى تلك الايام فجعنى مافيه جيل اليوم من قذارة ، الحب اليوم تجارة ، أخذ وعطاء ، مناقصات وممارسات ...

كان الاحساس بالحب فى جيلنا أشبه بالورود الناضرة والرياحين الباسمة ، كان حقيقة جميلة من حقائق الحياة ، كانت عروق المحبة أصيلة فينا ، لا يقتصر الاحساس فيها على أنفسنا بل كنا نحب كل شيء حولنا ... كنا نحب الناظر والاساتذة وسعاة المدرسة وكانوا يحبوننا كما نحبهم

وانها للوحة رائعة لا تغيب عن ناظرى أبدا ... أبو سريع ساعى (اليمكخانة) حيث كنا تتناول وجبات الطعام ... واقف يزققنا كأنا دجاج فى أحضان فرخ كبير !!! ..

من لى بتلك الأيام ؟ من لى بمن يرد قلبى الى صفائه القديم ، وينزع عنه كل ماتركته الحياة من رواسب الاسى والشك والحزن العميق ؟

كانت السنوات الخمس التى قضيتها فى المدرسة الخديوية من أحلى أيام الجهاد ، كنا فيها تلاميذ مجدين ، وخلقت فينا حيوات نادرة وقطرت أخلاقنا على السماحة ، فقد كنا نختلف طرائق فى النظر للناس والاشياء ، ومع ذلك كنا نسمر ونضحك من أعماقنا ، فلم يعرف الحقد أو الكراهية منفذا الى قلوبنا ، وكنا نقرأ

روز اليوسف والكشكول ، وما أكثر ما قرأنا فيهما من عبارات تند عن الذوق ، وخاصة الكشكول خصم سعد زغلول ، فقد كان ثروة فى البذاءة ، لفظا وتعبيرا ، ومع ذلك لم تجر على ألسنتنا يوما كلمة من هذا المحصول الكبير

ان المدرسة الخديوية علمتنا الادب ، التحقنا بها فكان المعلمون من فرط وقاحتنا وسوء تدبيرنا يسبون آباءنا فى طمأنينة المطمئن الى أن هذا السب هو دون مانستحق من تأديب ، وكان بيننا ابن رئيس وزارة وآخر أبوه وزير ! ثم مضت بنا السنوات فكسبنا فى سنتين أو ثلاث من الخصال الطيبة ألوانا حتى بدونا والرجولية طبعنا ، فلم نكذب قط ، وبقينا الى اليوم لا نعرف الكذب حتى أبيضه تتحاشاه ، ولم نخف قط ولو تطلبت الحياة منا الخوف حرصا على الوظيفة أو قوت العيال

علمتنا المدرسة الخديوية كيف نعتز بكرامتنا ونرفع رءوسنا دائما ، وعلمتنا حب الدرس وحب الحياة ، ونأت بنا عن الخسة ودناءة الطبع ، وانى لأسجل والفخر يملأ صدرى وقلبى أن جميع من عرفت من أبناء مدرستى لا يزالون الى اليوم فى صدر الحياة ، سواء منهم من سار فى زفتها أو اختار جوانب الطريق وخاف الزحمة وما فيها من تكالب واندفاع ! ...

أليس عجيبا أن نختلف فى أفكارنا وآرائنا ونبدو للناس طرائق منذ خمس وثلاثين سنة ولا تستطيع قوى الزمن أن تفرق بيننا

أو تخدش مودتنا وكأن صحبة الخديوية أقوى من وشائج القربى وصلات الدم ؟

ثم علمتنا المدرسة الخديوية النظام ، النظام الذى لا تزال حاجة شعبنا اليه كبيرة ، فقد كنا نستيقظ فى ساعة معلومة ، ونتناول وجبات الطعام فى أوقات رتيبة ، ونلهو فى ساعات محددة، ونستذكر دروسنا حسب قواعد مرسومة ، ومنذ ذلك التاريخ وأنا أعيش فى أضواء هذا النظام ...

ومن الزملاء النابهين الذين عرفتهم التوأم مصطفى وعلى أمين

كان مصطفى أمين زميلى فى لجنة المجلة ، وكان نادر الوجود فى اجتماعات اللجنة ، لانه أصلا كان نادر الوجود فى المدرسة ! وكنت اذ ذاك فى السنة النهائية وكان هو فى السنة الثالثة ، غير أنه كان جديرا بعضوية اللجنة لما اشتهر به من صلات بالصحافة ورجال السياسة ، وخاصة سعد زغلول ، حيث تربطه بهذا الزعيم قرابة ما

وفرض مقتضى الحال أن يكون لكل عضو فى اللجنة مقال فى المجلة سواء باللغة العربية أو بلغة أجنبية ، حتى لايقول الناس ان فى أعضاء اللجنة من لا يحسن الكتابة ، وكان المشرف على المجلة أستاذا نابها شاعرا ناثرا ، وكان ناضج الرأى عميق الفكر لايعجبه

العجب ولا الصيام فى رجب ••• وكم من مقال كتبناه وألقاه فى سلة المهملات ! ••

فماذا يصنع الماكر العريض مصطفى أمين ليكون له فى المجلة مقال ؟

ان مصطفى أمين والشيخ عبد الغنى المنشـاوى المشرف على المجلة عقليتان مختلفتان ، ولن يعجب الشيخ ماسوف يقـدمه مصطفى من انتاج ، ولابد أن يكتب الزميل وأن يحوز ما يكتبه رضاء الشيخ المشرف العام

وقدم لنا مصطفى أمين ترجمة لفصل من انتاج شارل ديكنز الاديب الانجليزى الكبير فى أسلوب شاعرى منثور ••• وأجاز الأستاذ المقال ، وأعجبت أنا به ، وراقتنى المعانى وان أدهشنى أن يكتب ديكنز عن (التلميذ البليد) وكان هذا هو عنوان المقال !

وصبر علينا الماكر الطويل مصطفى أمين حتى صدرت المجلة وظهر المقال يحمل اسمه الى جانب اسم ديكنز ، وجاء يسخر منا سخرية لاذعة ، فانه توسل باسم الاديب الانجليزى لينشر مقـاله والرجل لم يكتب قط هذا المقال ؟ ! •••

وخجلنا ، ثم عذرنا أنفسنا فلم يكن فينا خبير بالادب الانجليزى حتى نكشف ملعوب الصاحب النبيه ، والشيخ المشرف العام لم يكن أستاذا فى الانجليزية على أى حال ! ••

وهكذا مضت سنوات الخديوية الخمس ، لم يفتنا قطار التوفيق حتى فزنا — أنا وكل صحبى — بشهادة البكالوريا ، وافترقنا بعد هذا الزمن الطويل ، يعد كل واحد نفسه للمعهد العالى الذى يصبو اليه ويرجو أن ينال فيه ما ناله فى المدرسة الثانوية من نجاح

٤

كنت أريد أن أكون محاميا ... وأحمد الله أن فاتنى هـذا النصيب من الحياة ! ...

ومرة أخرى واجهتنى المصاعب ، كيف أقطع دراستى الجامعية والأمر يحتاج الى أجر فى التعليم ، ويحتاج الى أجر فى السكنى والملبس والطعام ؟

ومرة أخـرى بكت أمى ، واقترح أهلى فى القاهرة وبنها العسل أن ألتحق بأية وظيفة ، وأسعى للدرس ليلا كما صنع ويصنع غيرى من المجتهدين الراغبين فى العلم حقا ...

وخشيت شيئا واحدا فى السعى وراء الوظيفة ، خشيت أن تلزمنى أمى بالزواج بعـد أن تطمئن الى وظيفتى وهـى مورد موصول ، وكأن زواجى شغلها الشاغل ، وكأنها كانت تريد الى جوارى زوجة تدللنى كما كانت تدللنى هى وانها لترانى دائما طفلا جديرا بالرعاية والتدليل ...

وجاءت أمى تلح أن آخذ بالرأى القائل بالوظيفة ، ومضت تؤكد ـ وكأنها تكشف عن الغيب ـ أن أيامها فى الدنيامعدودة ، وان غاية ما تأمل فى البقية الباقيـة من حياتها أن ترانى زوجا وصاحب عيال !

فلما أصررت على أن تفرغ للدرس ، ورأتنى حائرا فى تحقيق بغيتى ذكرت مآثر أبى على التعليم ، ثم قالت : كاد أن يكون أميا الا أنه بنى المدارس وأهداها للدولة حين بارك الله فى ماله ، والله لمن الظلم أن تكون فى هذه الحيرة لاستكمال دراستك ولابيك كل هذا النصيب فى خدمة مواطنيه

واذن فقد أعان أبى الدولة وشاد لها المدارس ، أفمـا يجدر بهذه الدولة أن تعين ولده وهو يسعى الى أشرف ما يسعى اليه مواطن فى الحياة

وذهبت الى بيت لطفى السيد (باشا) فى مصر الجديدة ومعى توصية من الشيخ مصطفى المراغى وكان صديقا لعمى فى الخرطوم وقابلنى مدير الجامعة ونصحنى أن أنحى عن فكرى كلية الحقوق ، فانه لا يملك المجانية فيها ، وانما يملكها فى كلية الآداب ، وأن له فى تلك الكلية تلميذا يسوس أمورها وهو رجل مجاهد سعى سعيى وجاهد جهادى حتى أصبح علمـا يحنو على كل مجـاهد مثله من فقراء المواطنين

وعقدت مجلسا من الصحاب ، محمود وصلاح الشاهد وسيد رفعت ، ودرسنا الموقف وقلبنا الامر بعد أن لقينى مدير الجامعة وأصبح لى فى كلية الآداب نصيب ، فان للدراسة فى الجامعـة تكاليف ينوء بثقلها الاغنياء ، فمـاذا يكون حالى وليس عندى للكساء والطعام والسكنى مدخول يعتمد عليه أو يركن اليـه ،

وليس فى أهلى رجل ميسور الحال يمكن أن نفرض عليه العون طواعية أو التزاما ، وكل رجل منهم يتكفل جيشا من الابناء يركض فى سبيلهم ليسد حاجتهم من تعليم وطعام وكساء »

واشتركنا فى كتابة رسالة الى مدير القليوبية نحكى له فيها موقفى ، ونبين له ماقدمه أبى من خدمات مادية للتعليم ، ونطلب اليه أن يبصرنا كيف يعان واحد من أبناء هذا الاقليم ليتم دراسته الجامعية وهو ابن رجل له على التعليم فى مديريته يد ومعروف ؟

وقابلنى مدير القليوبية محمد عزمى — رحمه الله — واتفق معى على أن أكون مبعوث مجلس المديرية فى كلية الآداب ، بشرط أن أخدم التعليم فى المديرية بعد تخرجى خمس سنوات ، ويلتزم المجلس مقابل هذا بصرف راتب شهرى قدره خمسة جنيهات
وكم كان لابى على من أفضال ! ...

كنا فى سنة ١٩٣٠

وكانت فى كلية الآداب أقسام ، وكانت فيها ثلاثة أقسام يصلح حالها لحالى ، فأنا أقرأ الأدب وأسيغه ، فقسم اللغة العربية صالح لذوقى ، وأنا أجادل وأحب الجدل وأفلسف حياتى وأمنطقها ، فلا بأس أن يكون نصيبى من الكلية فى قسم الفلسفة ، وأنا أحب التاريخ وأجد لذة فى قراءته وقد درسته فى المدرسة الخديوية وتفوقت فيه ، فقسمه فى كلية الآداب مناسب لروحى وطبعى
والحق أن وجه شفيق غربال أستاذ التاريخ الحديث هو الذى

جذبنى الى هذا القسم وحببنى فيه ، ولست أدرى لم استراح قلبى الى هذا الأستاذ منذ وقع نظرى عليه وسمعته فى لجنة الاختيار يتحدث الى العميد طه حسين ! ...

ثلاثون عاما مضت وأنا تلميذ هذا الرجل ، وانى لفخور بأستاذيته ، وانهم مئات أولئك الذين ينافسوننى فى هذا التقدير ...

وكنا فى قسم التاريخ ثمانية طلاب وطالبة واحدة ...

كانت هذه الطالبة تأديبا وتهذيبا لنا ، كان لابد أن نحلق ذقوننا حتى نليق بزمالة فتاة ، ونتحفظ فى الالفاظ والعبارات حتى ننال احترامها وكان معنا زميل أقبل من أقصى الصعيد ، أقبل فجأة على القاهرة ، فبهرته شوارعها ومبانيها والترام الذى يجرى فيها ، وأخطر ماهز مشاعره وجود أنثى الى جانبه تتلقى العلم كما يتلقاه ، وشغله أن يكون فى الجامعة هذا اللون من الحياة التى تؤاخى بين الشبان والشابات ، وتجعل للفتاة حقا كاملا كحقه ، ووضعا مماثلا لوضعه

وكان هذا الزميل يفتن فى مظهره ، أحسن لطربوشه الكواء ، وغرق القميص وكماه فى النشاء ، وتوسط رباط الرقبة دبوس من ذهب ، وبرز فى يده اليمنى خاتم من ماس ...

كل قطعة على جسمه الفاره ثروة ... وكان هو فى ذاته ثروة ، فحديثه الحلو وقلبه الصافى وضميره النقى ، وسذاجته التى كانت

خدیثنا سنوات وسنوات

كانت الجامعة فى ذلك الوقت تضم من الاناث فى كلياتها الاربع تسع فتيات ، واحدة فى كلية الحقوق ، واثنتين فى كلية العلوم واعدادى كلية الطب ، والباقيات فى كلية الآداب

وكانت مصر تحكم فى ذلك الوقت بالحديد والنـار ، ألغى دستور وقام دستور ، وجاء فى وزارة التعليم وزير زعم أنه حام للتقاليد،ومن التقاليد التى كان يحميها محاربة تعليم البنت وخاصة فى الجامعة ، وكان مجلس النواب صورة بديعة لتفكير الوزير ، أو لعل الوزير كان صورة بديعة لمجلس النواب !

ولتعليم البنت فى مصر تاريخ كله حصى وأشـواك ، الدولة لا تؤثر هذا التعليم بعطف منذ عهد محمد على الى ذلك التاريخ ، فيما خلا فترة قصيرة بين سنتى ١٨٦٥ و ١٨٧٩ وفيمـا خـلا الفترات الاخرى القصار التى حكم فيهـا سعد زغلول بأفـكار وآراء جديدة أو حكم خصومه من الاحرار الدستوريين ، فتلك كانت الصحوات التى نالت فيها المرأة بعض الحقوق

كان فى وزارة التعليم وزير للتقاليد كما يفهمها الوزير ، وكان فى الجامعة طه حسين وهو رجل أثموه فى دينه منذ عهد غير بعيد ، فكل جديد يراه اثم جديد يضاف الى قائمة الآثام التى سجلت له جيلا بعد جيل

وطه حسين فى ذلك الوقت امام لاشك فيه ، قال لنا : هـذه

هى الجامعة ، وهذه الجامعة لها حرم ، والاعتداء على حرم الجامعة اعتداء على الجامعة نفسها بما تحمل من مثل وأهــداف ، وان الجامعة فى حياة مصر مفترق طريق ...

وكان مجلس النواب يهاجم طه حسين بين آن وآخر منذ سنة ١٩٢٦ الى سنة ١٩٣٢ فهو غصة فى حلق التقاليد السخيفة البالية ، وقد تآمر لطفى السيد وطه حسين وكامل مرسى عميد الحقــوق فى سنة ١٩٢٩ على اقتناص حق البنت فى التعليم الجامعى فى غفلة من حكومات ذلك العهد فاذا أصبح هذا الحق واقعــا ملموسا بالتحاق تسع فتيات بكليات الجامعة الاربع حفظها لهم الملك فؤاد وحواريوه

وقد عرفت طه حسين منذ سنة ١٩٣٠ وحضرته أستاذا وعميدا لكلية الآداب ، وكنت شديد الايمان به ، مقبلا عليه اقبالا منقطع النظير ، وكان كل رأى يقول به طه حسين يلقى من نفسى هوى ويملؤها غبطة ، فقد كانت آراؤه فى السياسة والادب والاجتماع جديرة حقا بالتأييد

وبالرغم من أن طه حسين كان مشهورا حينذاك بأنه على رأس المجاهدين لسعد زغلول وأن له فى سـعد مقــالات فى جريدة السياسة مؤذية ساخرة ، وسعد له فى ذلك الوقت مقام مقدور ، وهو سيرة عطرة يوقرها معظم المصريين ، فان الرجل لم يخدشه خلافه مع سعد أو يصغر من شأنه عندنا ، لأن طه حسين كسعد

زغلول ، قطعة رائعة من تاريخنا القومى ، له رسالة فى حرية الرأى والفكر ، وله نزعات فى تجديد حياتنا ورفع مستواها ، لا تقل أبدا عن رسالة سعد زغلول فى ميادين السياسة وجهاد الانجليز ...

وقد أقمنا فى قسم التاريخ حفل شاى دعونا اليه الاستاذ العميد طه حسين ، ودعونا الى الحفل طالبات الكلية وبعض طالبات الكليات الاخرى ،وانتحى الطالبات ركنا ، وانتحى الطلبة ركنا آخر ، ولكن طه حسين أشار بأن تجلس الطالبات الى جوار زملائهن ، حتى نبدو وكأننا أسرة ، ويعلم الناس أن الجامعة تخلق فى حياة مصر حياة شريفة كريمة لا يسىء فيها اختلاط البنات بالبنين الى شىء من الآداب أو الاخلاق

وظهرت الصورة فى الصحف ، وقامت جريدة الشعب لسان حكومة ذلك العهد بحملة عنيفة ، وقام مجلس النواب بثورة هوجاء كيف ينشر طه حسين الفساد فى كلية الآداب ، وطالب نظام الحكم برأسه وقلبه ولحمه ودمه حتى تنقذ الفضيلة من سعى هذا الرجل المفسد الذى يقبل أن يظهر فى صورة فيها الصبية الى جانب الصبيات ؟ !

وأصبحنا فاذا طه حسين منقول من الجامعة الى وزارة المعارف مفتشا للغة العربية أو كبيرا للمفتشين .

وقد كنا مؤمنين بأن (رجلنا) آكبر من هذه الوظائف ، وأعز

علينا وعلى مصر من أن يحبسوا آراءه وأفكاره فى نطاق التفتيش ، ودعينا الى مؤتمر عام فى كلية الطب ، تزعمه نور الدين طراف ، وشارك فيه جميع طلبة الجامعة ، وفى مقدمتهم أعضاء مجلس الاتحاد ، وكنت واحدا من أعضاء هذا المجلس ، وكان تكوين مجلس الاتحاد أسلم وأنظف وأشرف من تكوين مجلس النواب ، لأنه جاء نتيجة انتخابات حرة بين طلاب الجامعة ولم يجىء نتيجة ضغط أو تزوير أو ارهاب

وكان من أعضاء هذا المجلس ، نور الدين طراف وفريد زعلوك ويحى العلايلى ونامق ومصطفى السعدنى والظاهر حسن وابراهيم عبود وعلى كريم وسهير القلماوى ومن قبل فاز بعضويته محمد خشبة ومحمود الأتربى وفؤاد سراج الدين وغيرهم من شباب الجيل ، وكلهم مختلفو المذاهب السياسية ويتفاوتون فى الجاه والكفاية ، ومعظمهم يخضع لتوجيه الأحزاب ، وان كانوا فى محنة طه حسين كفا واحدة وعصبة ليس لها فكاك .

وقامت الثورة فى الجامعة ، ومضت الحكومة فى عنفها فأغلقتها ، وفصلت طه حسين من وظائف الدولة ، وحاربته فى رزقه ، ثم عادت وفصلت بعض الطلاب — وأنا منهم — لآماد مختلفة ، وكان من أقبح مخلفات هذه الأزمة أن ولى منصب العميد بعد طه حسين المستر سنكورت أستاذ الأدب الانجليزى فى كلية الآداب ....

وكنا فى هذه المحنة معادن ، استسلم أساتذة الجامعة للمصير الذى وصلت اليه جامعتنا فيما خلا الدكتور محمد عوض ، فكان الى جانب طه حسين فى محنته فنقلوه أستاذا فى مدرسة التجارة العليا ، أما بقية القافلة من الأساتذة والمدرسين فقد سارت مع الأحداث تتفرج كأن الجامعة لم تمس بسوء ، وكأن حرمتها لم يعتد عليها أحد ......

وبقى الطلبة حيث كانوا تضطرم نفوسهم بالغيظ والحنق ، وخاصة أن حكومة ذلك العهد جاملت المحتل فى كل شأن من شئون البلاد ، وأردنا بعد قضية طه حسين بسنة ـ وكنت أعمل اذ ذاك محررا فى جريدة كوكب الشرق ـ أن نحتج على تصرفات الحكومة المؤذية لكرامة بلادنا وشرفها ، وتخيرنا ـ سرا ـ كنف هرم الجيزة مكانا مناسبا لانعقاد المؤتمر الجديد ، غير أن الحكومة فاجأتنا صبح اليوم الموعود بقرار من مجلس الوزراء نشرته جريدة الأهرام ، بفصلى وفصل فريد زعلوك ومحمد كامل حسين وحمدى البكرى من الكليات التى ننتسب اليها .

لم يكن فصلنا من الجامعة أمرا بالغ الخطورة اذ ذاك ، ولكن الأمر الخطير الذى عرفناه بعدئذ هو الوسائل التى عمدت اليها الحكومة كى تكشف عن موقف الجامعيين منها ، فدست علينا بعضنا لقاء أجر معلوم ، فكانت أخبارنا ينقلها أعز الناس علينا ونحن لا ندرى أن زمالتنا تحيط بها كل هذه الريب والشكوك ....

ومضى أصدقاؤنا بعد قرار فصلنا والسخط يملأ قلوبهم ، وما انعقد اجماع المصريين على الضيق بحكم مثلما انعقد اجماعهم على الضيق بالسياسة التى ساس بها الملك فؤاد شئون البلاد .

والحق أن فؤادا كان أثقل من حكم مصر ظلا وأبغضهم الى قلوب المواطنين ، اذ كان رجعيا أعجمى اللسان والفكر، غليظا لا يسيغ النكتة ولا يتجاوب مع شعبنا وهو أخف شعوب العالم دما وأرقها حاشية وأذكاها عقلا وأغناها لماحة وبداهة .....

وكذلك كره هذا الملك أقاربه وأنسباؤه ، وحضرت فى ذلك اجتماعا خطيرا فى بيت مطلقته شويكار ، دعانا اليه زوجها الهامى حسين ، وتوسط بين الداعى والمدعوين صديقنا ضياء الدين صالح الطالب بكلية الحقوق والمستشار الآن بمجلس الدولة ، وكان يربطه بهذه الجبهة فى الأسرة المالكة رباط قديم ، ولعل للجيرة دخلا فى هذا الرباط .

وكان المدعوون معظم أصدقاء العمر ، توفيق الطويل وحسين مؤنس وهما اليوم أستاذان فى الجامعة ، ومحمود الشاهد وصلاح ذهنى رحمهما الله ، وعبد القادر السماحى وآخرون كان من بينهم شاب مغرور من طلاب الحقوق لا أذكر اسمه ، وكنا نطلق عليه ساخرين لقب «المحامى الصغير» لتفاهة عقله وقلة ادراكه ! !

وقد رأيت الملك فى أبهته ونظام الطبقات فى أبرز ملامحه وأنا

أدخل بيت شويكار فى ضاحية المرج ، فقد هجم علينا الخدم يزيلون عن أحذيتنا ما علق بها من تراب ونظراتهم تنم عن الدهشة والاستغراب ، اذ يبدو أننا كنا فئة من الخلق عجيبة لم تعرفها من قبل الدار ، وتقدمنا رجل يرتدى بزة خاصة ، وأخذ يحيينا بانحناءة كلما وقع نظره على واحد منا كأننا شيء جدير بالتحية والاجلال ؟ !

ودخلنا حجرة اجتزنا للوصول اليها حجرات ، فاذا فى الصدر رجل جميل الصورة يستقبلنا محييا فى لغة فرنسية سليمة ، عرفنا أنه الهامى حسين زوج الأميرة شويكار .

وقدمونا الى (أفندينا) كما طلبوا الينا أن نسميه ! واحتفل بنا الرجل وزادنى فى الوزن حبة ! فقد كنت الصحفى الوحيد فى المجموعة التى جاءوا بها لتدبر مع الهامى حسين وزوجته مؤامرة ضد الملك فؤاد .

ودعينا الى تناول العشاء ، فتصدر المائدة زوج الأميرة ، وأجلسنى الى يمينه ، وأجلس ضياء الدين صالح الى يساره ، ونبهوا علينا أن نغرف من الطعام ما يكفينا حتى لا نترك فى الصحاف شيئا ، وألا نتحدث الا اذا أذن لنا سمو أفندينا ... وألا ننطق والطعام فى أفواهنا ، والضحك ممنوع أصلا ، واذا اقتضاه الحال كتمناه حتى يتحول الى ابتسامة خفيفة لا تنفرج عنها الشفاه الا قليلا ...

كانت جميع التوجيهات الخاصة بآداب مائدة شويكار ممكنة التنفيذ وكان الحرج الشديد الذى أصابنا على تلك المائدة هو كيف نأكل العصافير التى صادها لنا أفندينا ؟ كيف ننسل لحمها من عظمها ان كان فيها لحم ؟ وهل نستعمل أيادينا فى تناولها ؟

وهمست فى أذن حسين مؤنس ... نأكلها يا أخى كما يأكلها أفندينا .....

وغمس أفندينا شوكته فى واحدة منها ودفع بها الى فمه ، وكان فى طبقى ثلاثة عصافير ، فعلت بواحدة منها مثلما فعل زوج الأميرة شويكار ، وأخذت أمضغها دقائق مرت كأنها جيل ، واستعنت بالماء كوبا بعد كوب حتى ازدردتها من غير جروح تصيب الحلقوم ! ..

ودهش (أفندينا) لأسناننا التى كسحت ما فى أطباقنا من عصافير فى لحظات ، وعرض علينا مزيدا منها فاعتذرنا جميعا فى حماس ليس له نظير ، وحين خرجنا قذفنا الى الطريق العام ما كانت تزدحم به جيوبنا من عصافير ؟! ! ...

ثم انتقلنا الى الصالون الفخم وبدأ الاجتماع الكبير ، وقدم لنا أفندينا وثيقة تعلن عزل الملك فؤاد وتنصيب أمير آخر من الأسرة اشتهر بخلافه مع الملك حتى أنه تنازل عن لقب الامارة والأمير .....

ووقعنا الوثيقة وصدورنا منشرحة فقد حسبناه عملا وطنيا

وان كنا لا ندري مغبته لو كشفه الكاشفون .....

وبعد سنة وشهور مات الملك فؤاد والتأم شمل الأسرة من جديد وعاد الامير الثائر الى لقبه ، ومنح الهامى حسين رتبة الباشوية ، وظهرت شويكار فى المجتمعات كأنها أم روحية لفاروق على طريقة لم تؤثر قط عن أم فى الوجود ؟ ! ! ...

كانت مؤامرة لا تجاوب فيها بين المؤتمرين ، فهم — مهما يكن بينهم من خلاف — أمراء وسادة ، ونحن فى تقديرهم من العبيد أبناء الفلاحين ؟ !

لقد أضفت فى الجامعة الى أصدقائى القدامى أصدقاء جددا ، لم نفترق قط ، ولم تشب مودتنا شائبة من تلك الشوائب التى تفسد بين الصحاب على مدار الأيام ، وكنت وسيطا فى خلق صداقة قوية وطيدة بين أصدقائى القدامى فى المدرسة الخديوية وأصحابى المحدثين فى الجامعة .

لقد كبرنا أبان دراستنا الجامعية ، وكبرت معنا المسئوليات ، وزاد اختلاطنا بالناس كما زادت معرفتنا بالحياة والأحياء وبدأت أحس أن جمال الدنيا يعتوره القصور والنقصان وان لم يكن ذلك على وجه يزعج مثل قلبى ، وهو قلب فطر على محبة الناس والثقة فيهم والايمان بانسانيتهم .

قال لنا لطفى السيد : يجب أن تحيا الجامعة حياة غير حياة الناس ، وكنت أظن أن هذا أمر ميسور ، بيد أننا من

الناس ، النـاس بخيرهم وشرهم ، بنظافتهـم وقذارتهـم ، بسماحتهم ولؤمهم ، والم أجد قط ، وأنا قد عشت فى الجـامعة نحو ربع قرن ، أننا نختلف كثيرا عن سائر الناس ، وأخشى أن أزعم أننى وجدت أخيرا بعض مواطنى من أبناء البلد على خلق كنت أرجوه لكثير ممن فى الجامعة من المعارف والزملاء

واذا كنا مثل سائر الناس ونحن فى الجامعة ، سواء كنا طلابا **أو أساتذة ، فليس من الضرورى اذن أن أفصل هنا كيف كنـا** كسائر الناس ؟ ! ...

حسبى أن أحكى كل جميل عرفته فى الجامعة ، فان من أعز السنوات التى عشتها بسنوات الجامعة ، وهى سـنوات مليئة بالعبر ، مليئة بالمرح ، حافلة بالجميـل والجليـل ، زاخـرة بالأسرار والاخبار

ان الجامعة فى حيـاتى شىء هام وأصـيل ... صحيح أن المدرسة الخديوية وضعت فى نفسى وقلبى وعقلى اللبنات الأولى فى تكوين شخصيتى وتكييفها ، غير أن الجامعة صقلت القاعدة وشذبتها ، وان كانت الحياة فى الجامعة ، فى وقت ما قد شابها مايدعو الى الحسرة التى هدمت كثيرا من الشـعور الشـامخ والاعتزاز العظيم بما كنا نراه فى جامعتنا العتيدة

أعود الى الصـحبة التى ماوهنت يوما ، والعـروة التى ما انفصمت أبدا ، أعود الى أصدقائى ابراهيم رزقانة ، زميـل

قـــديم ، ونجيب محفـوظ وهنرى فلتس وعبد الفتـــاح زكى رفيق الشدة والرخاء وابراهيم سرابامون وفـريد زعلوك ونور الدين طراف وتوفيق الطويل وأبو بكر نور الدين ومحمود الشاهد وصلاح الشاهد وعبد القادر السماحى ومصطفى طه حبيب وسعاد السماع وغيرهم كثير

كل هؤلاء كانوا صحبى ، بل كانوا أهلى ، بدأ رباطنا طلابا فى الجامعة ، ولم نشـعر قط أن بعضنا أصبح وزيرا أو رئيس وزارة أو موظفا مرموقا أو كاتبا معروفا أو مؤرخا بعيد الصيت ، فكل ذلك من عرض الدنيا ، وقد بدأت صداقتنا ومضت مع الأيام مبرأة من الهوى ، بعيدة عن الغرض ، فوق عرض الدنيا وما فى الدنيا من ترهات !

كان طراف وزعلوك على طرفى نقيض فى أمور السـياسة ، الأول أميل للأحرار الدستوريين بحكم صـــلات الاسرة التى ربطت بينها وبين قادة هذا الحزب وان كان فى قرارة نفسه يؤمن بنظام معين ، والثانى من الطلبة أنصـار الوفد المعروفين ، ومع ذلك كله فهما صديقان حميمان ولا يزالان على المودة متفقين

وكنت فى أمور السياسة والنظر اليها وسطا بينهمـا ، وكان أحدهما وكيلا لاتحاد الجامعة والثانى سكرتيرا عاما ، وهما أخطر مركزين فى توجيه هذا الاتحاد ، وكان انتخاب الوكيل والسكرتير العام يشغل كل سنة أحزاب مصر ، ولولا شخصية طراف ، وهو

كمـا قلت فيه من ربع قرن كالقمـاش الابيض النظيف فى عين الشمس ، لولا هذه الشخصية اللطيفة المهذبة لما استطاع أن يكون وكيلا أو سكرتيرا عاما للاتحاد فقد كان يمثل القلة الضئيلة فى الجامعة

لم تفسد السياسة واختلاف النظر فيها مابين الصديقين ، وانما أثر فيهما وحز فى نفسيهما شيء آخر بعيد جدا عن الجامعة وعن السياسة وعن الزعامة

أيهما أكبر سنا ؟ ! !

قدم فريد زعلوك شهادة ميـلاده فى اجتمـاع عائلى حضرته الصحبة كلها تثبت أنه مولود سنة كذا من السنين ، فهو اذن أصغر من صاحبه عدة شهور !

وطعن طراف فى الشهادة وزعم أنها لشقيق لزعلوك ولد بعده ومات ! أو لعلها كتبت حين أراد أبوه أن تكتب بحكم أنه العمدة وعين دسوق ، ولاشك أنه نسى تقييد ولده فى دفتر المواليد عاما وعدة شهور ! ...

أقول ان هذا الأمر شغل بال الصديقين سنوات وسنوات منذ أيام التلمذة الى أن بلغا مراتب الوزير ، حتى أننى دعيت يوما — وكنت رقيبا للنشر ومديرا للمطبوعات — الى مقابلة « معالى » وزير الدولة فريد زعلوك ، وكانت الدعوة جريئة عاجلة ملحة ، وكانت هناك أزمة بين الحكومة والقصر ، واعتقدت أن وراء هذه

الدعوة خبيثا يقتضى وجود مدير المطبوعات

ومضيت الى رئاسة مجلس الوزراء ، وأنبأنى صلاح الشاهد أن الوزير — وكان مجلس الوزراء منعقــدا — سأل عنى أربع مرات ، ووجدت فى بهو الرئاسة نحو خمسين صحفيا أحسوا من وجودى وتعليق صلاح الشاهد أنى حين ألقى الوزير سألقى اليهم بنبأ خطير ...

وخرج لى زعلوك من جلسة مجلس الوزراء

وقال : هل علمت ؟

قلت : علمت ماذا ؟

قال : ان طراف (باشا) — وكان وزيرا وزميلا لزعلوك فى وزارة نجيب الهلالى — أنبأنى من نصف ساعة بتاريخ ميلاد شــقيقه نور الدين طراف ... اننى أصغر منه بسنة وشهور ؟ !!

قلت ساخرا : يامعالى الوزير ، هذا نبأ خطير ، وهو بالاذاعة جدير ، فهل تسمح لى بأن أقذف به فى وجوه الصحفيين ، فهو أهم من الأزمة التى انعقد لها مجلس الوزراء ، وأخطر من خلافكم مع فاروق !!

قال : صدقنى ان هذا النبأ فيه من الجد أكثر مما يصنعه معنا وفينا الملك فاروق ! ...

والتقى الصحب عندى فى المساء ، ومن بينهم طراف وزعلوك ،

وكانت ملحة الليلة مازغمه زعلوك على لسان شقيق طراف ! ...

مالنا والوزارة والوزراء .. فلنبق حيث كنا طلابا فى الجامعة أو أصدقاء لا تشق لنا جبهة أو تفت فى صحبتنا الاحداث الكثار

كان التعليم الجامعى فى تلك الايام شيئا بديعا حقا ، لم تكن لمذكرات الاستاذ قيمة ان لم نقرأ بعمق فى الموضوع أكثر من كتاب ، وهى مراجع باللغات الاجنبية ، وكان ذلك يشغلنا معظم الوقت ، ويعلمنا الاعتماد على النفس ، ويبصرنا بكثير من الحقائق التى تفوت الاساتذة عادة وهم يلقون الدروس

وكان أساتذتنا فحولا ، وكنا نراهم أنصاف آلهة ، وهم فى الحق جديرون بأكثر من هذه النعوت والاوصاف ، كانوا طه حسين ومحمد شفيق غربال والشيخ مصطفى عبد الرازق ومنصور فهمى وعوض محمد عوض ومصطفى عامر وأحمد أمين وأمين الخولى والشايب وغيرهم من أئمة فنون الآداب

وكنا نحبهم ونوقرهم ، وكنا قريبين منهم قربهم منا ، هم أساتذة كبار ونحن أساتذة صغار ، أو قل كلانا تلميذ فى محراب العلم ، وانما هم الرواد الاول ونحن البواكير على خطوهم نسير

لقد كانت الجامعة فى ذمتى سدا عاليا وقف طغيان كل جبار ، وتحدت الملوك وساندت الاحرار ، وبذلت عند الضرورة — كما حدث فى سنة ١٩٣٥ — دم فتيانها فى سخاء لا يجود به الا من آمن برسالة وعاش من أجل عقيدة ، وأبى أساتذتها أن يسيروا فى

ركب النفاق ولو عصف بأرزاقهم ملوك ذلك الزمن وأدواتهم من نفاية الوزراء .

كانت الجامعة تحيا فى رجل ... فى طه حسين

قرأنا له نحو خمسين كتابا وملأ صوته أسماع الناس وشغلت صورته أبصارهم ... كان بعيد النظر ... كان عميدا لكل جديد ، وكان شجاعا ، وكان علما على حرية الرأى والفكر ...

وسيطر الرجل على قلوب الشباب بعلمه الواسع العميق وآرائه الخلابة الجذابة ، وكان ايمانه بالحرية أقوى من الحرية نفسها ! حتى لم يرض الأحرار المسئولون عن الطائر الذى يغرد على هواه ، فلاموه فى مجلس النواب ، وطارت فى سبيله وزارة ، ولعلها الاولى والاخيرة أيضا فى حياة مصر التى تستقيل فيها حكومة ويبقى مجلس النواب ! !

دعا الى الحرية لا فى شئون السياسة والتعليم فقط ، بل غنى على أوتارها فى شئون الدين والدنيا حتى أثموه فى عقيدته وخلقه ، وصدرت فى حقه قرارات الحرمان ، وصودرت كتبه وحرقت فى فى كل مكان ...

كان لا يريد أن يحجر على الرأى وان خالفه أو يضطهد القلم ولو شط صاحبه ، وقد أغروه بمال الدنيا ومراتب الجاه والسلطان ، فعز لسانه وقلمه على دعوة الطغاة وهانت لديه مراتب الجاه والسلطان ! ...

لم يطبل قط ولم يمسك بمزمار ، فكان علمـا فى ظله وقفت الجامعة صـفا واحـدا ، فكانت لهـا حرمة وكان لهـا صيت صانها من الغواية والشيطان ! ..

وكم قاسيت فى الجامعة لأعيش !

كان للجامعة مطالب أهمها الكتب والمراجع وما أغلاها ... وكانت جنيهات مجلس المديرية الخمسة تذوب فى مطالع الشهر وحاجاته ، وكان لابد أن أعمل لاستكمل الناقص من مطالبى ، فاشتغلت بالصحافة وأصبحت محررا فى جريدة كوكب الشرق ، وتوسط لى عند صاحبها صديق كريم الخلق أصيل المحتد من بيت أبى رجاب بالصعيد ، كان نائبا فى مجالس النواب المختلفة ، ويد هذا الرجل على غير منكورة ، انه سعد الدين أبو رجاب ..

وكانت جريدة كوكب الشرق أكبر الصحف المسائية يومئذ ، لان محررها أستاذى طه حسين ، وطه علم وقلم ، فاختار لى كلمة أكتبها كل يوم بعنوان (صور المساء) وأجزلت الصحيفة العطاء ، فقررت أن يكون راتبى أربعة جنيهات فى كل شهر ، وكان هذا راتبا فى الصحف مرموقا ، وهو مرموق اذا علمت أن طه حسين كان يتقاضى أعلى راتب يتقاضاه صحفى فى مصر ، ثمانين جنيها مقابل تحريره واشرافه على التحرير ، وتوجيهه لكل ما فى الصحيفة من بيان ! ...

وأشهد أنى بقيت فى كوكب الشرق أحرر يوميا « صـور

المساء » نحو أربع سنوات سعيدا بما أكتب ، وأشهد أيضا أنى لم أنقد راتبى قط دفعة واحدة ، بل كان المسئولون فى الجريدة ينقدوننى اياه على خمس أو سبع أو عشر مرات ! ... وكانت احدى المرات عشرين قرشا ؟ ! ... وأشهد أيضا أن ادارة الجريدة لم تؤخر لى راتبا فى أى شهر ، فانتظام الشهور فى نقد الراتب أمر مؤكد ودقيق ، أما تسليم الراتب فكان على دفعات ؟ ! ...

ولم تفكر جريدة كوكب الشرق فى منح أى محرر علاوة ما ، فنظام العلاوات والمكافئات التشجيعية لم تكن تعرفه الصحافة المصرية فى عمومها ، ويبدو أن المسئولين فى كوكب الشرق اعتبروا راتب المحرر تعاقدا أبديا لا يزيد ولا ينقص بحال ، والمحرر الذى لا يعجبه الأمر أمامه باب الجريدة واسع تفوت فيه قافلة من الجمال ! ...

وترك طه حسين جريدة كوكب الشرق يوما غاضبا ، وأذكر أن صاحب الجريدة فزع الى مصطفى النحاس (باشا) ليتوسط عند الكاتب الكبير ، وعرض الرجل عقدا على (بياض) لطه أن يملأه على هواه ، ورفض أستاذى العرض وأبى أن يعود عن قرار اتخذه مهما تكن الظروف والملابسات ، وتلك خلة تعجبنى ، أن يعاند المرء مادام على صواب ، وطه حسين كان يرى أنه أهين ، ولا يمكن أن تمسح اهانته آلاف العقود البيضاء ...

وفى كوكب الشرق تعلمت كيف أفكر وأكتب ، وكان طه حسين

يدعونى كلما رضى عن مقال لى ويشجعنى بكلمة حلوة تزيدنى غبطة وثقة فى مستقبل الايام ، وقد نصحنى ألا أعيد قراءة مقالاتى بعد نشرها حتى لا يدفعنى غرور المتواضعين أو تواضع المغرورين الى الاعتزاز بما كتبت ، وهو — فى رأيه — شىء يفسد على المبتدئين نجاحهم .

لم أعمل قط بنصيحة طه حسين ، فقد كنت أنتظر بائع الصحف عصر كل يوم لأقرأ مقالى مرات ومرات ! !

وكنت أومن بأن حرية الكاتب فى الجريدة شىء له قداسته ، وأذكر أنى شاهدت أول فيلم لعبد الوهاب واسمه (الوردة البيضاء) وكان عهد المصريين بتمثيل السينما فى خطاه الأولى ، فلم يرق لى موضوع الفيلم ولم أرض عن تمثيل هذا الفنان المفتن الذى له فى أسماعنا صدى كبير ، فنقدت ما رأيت فى عدة مقالات ، وطلبنى طه حسين ، وذكر لى أن فيلم عبدالوهاب بداية طيبة وأنه شهده وأعجب به ، وأن هذا الرأى ليس رأيه وحده بل هو رأى كبار رجال الوفد وأنصاره العديدين .

ثم قال : واننى معجب بما كتبت من رأى فى الفيلم العجابى بالفيلم نفسه ، وأنت حر فيما تبدى من آراء ، وأرجو أن يكون مقال الغد فيه الخاتمة لما تكتب من نقد عنيف

وفهمت أن طه حسين صان بذلك قلمى ورأيى وحريتى ، ولو لم يكن هذا الرجل هناك لعصف بى القوم عصفا ، فقد كان

محمد عبد الوهاب صديقا حميما لرئيس الوفد وسكرتيره العام .

ودفعني النجاح في كوكب الشرق ، والاسم الذي كان يقرأ يوميا الى جانب الفحول من الكتاب ، وفي ذلك من الزهو مافيه ، دفعني هذا الى تأليف قصة بعنوان (الحياة الثانية) طبعت منها ثلاثة آلاف نسخة ، وبيعت النسخة بخمسة قروش ، وكتب مقدمتها الدكتور طه حسين ...

دفعنا عشرين جنيها ثمن الورق وكان أبيض ناعما ، وتعاون أصدقائي هنري فلتس وابراهيم سرابامون ومحمود الشاهد في تمويل ورق الكتاب ، وتوليت سائر التكاليف من طباعة وتجليد وتدبيس وهي نحو عشرة جنيهات ؟ ! ...

وأشرفنا بأنفسنا على عملية الطبع بالفجالة ، وكانت آلة الطباعة تدار باليد ، وكان من يديرها يتقاضى عن الساعة عشرة قروش ، وكنا تخفيفا للمصروفات تتولى نحن الاربعة بالتناوب ادارتها بأيدينا وكم عرقنا وكم تقطعت قلوبنا حتى تم طبع الكتاب !! ..

وقام بقية الاصدقاء والصديقات ببيع الكتاب في مختلف الكليات على طلاب الجامعة وأساتذتها حتى نفدت الطبعة الأولى في أيام

كان أول كتاب لي ، ولعله كان أسرعها في الذيوع والانتشار

أعود الى كوكب الشرق وما أصابها من تغيير ، فقد جاء أحمد ماهر ليملأ الفراغ الكبير الذي تركه طه حسين ، وأحمد ماهر

رجل اقتصاد وسياسة وليس له أسلوب وليست له تلك الملكة التى خص الله بها أديبنا الكبير ، وان كان أحمد ماهر ذا عقل واع وفكر ناضج ومنطق سليم ، وكان يلقى بآرائه وأفكاره الى الأستاذ عباس حافظ ، وهذا يصيغها فى أسلوب جميل

وكان زملائى فى تحرير جريدة كوكب الشرق ، جـــلال الحمامصى وكامل الشناوى ومحمد صبيح والدكتــور كامــل حسين الاستاذ بجامعة القاهرة الآن ، ومفيده عبده زميلتى فى كلية الآداب ، وغيرهم كثير ، وكان بعضهم معنا بحكم صلاته بالوفد والوفديين ، وبعضهم بحكم مايربطه بطه حسين ، ولم أكن من هؤلاء أو هؤلاء وان لم أخف تحمسى للوفد اذ ذاك وايمـانى العميق بأستاذى الكبير

* * *

لم تهدأ الجامعة قط فى عهد اسماعيل صدقى (باشا) سنة ١٩٣٣ ، فهى دائما فوارة ثائرة على أوضاع العهد وفساد الحال ، وكان صدقى (باشا) داهية عنيفا فرض الحصار على جامعتنا وألزمنا بالسير فرادى أقبلنا على الجامعة أو مضينا عنها ، وقد خرجت مرة فى يوم ثائر عصيب بصحبة أمينة السعيد زميلتى فى الكلية فى طريقنا الى الترام ، وأقبل ضابط فى يده عصا واعتبر سيرنا معا تجمهرا يحظره القانون ! وكاد أن يعتدى على زميلتى وهى تحاجه بمنطق سليم ، وأصبت بحرج ما بعــده حرج ، فان الرجل ان اعتدى عليها اضطررت بعامل الشهامة والمروءة أن

أتدخل وأحول دون هذا الاعتداء ، وعزت على نفسى فأنا دقيق الجرم ان نفخونى أطير ! وأنا لا أذكر فى حياتى أنى اشتبكت مع انسان فى معركة ، فكيف أبدأ التجربة مع ضابط ضخم فى يده عصا وخلفه جم من الجنود غفير ؟ ! ...

وهدى الله أمينة السعيد ... وهدى الله الضابط الكبير ! ..

وفى تلك الأثناء مرت فى حياتى أعمق المحن وأدقها ، اذ ماتت أمى ، وكان موتها شيئا مؤذيا لنفسى وقلبى ، وما كنت أظن أنها تموت مبكرة ، ولو عاشت مائة سنة لظننتها ماتت مبكرة أيضا ، فان فقدان الام شىء فظيع جدا سواء كنا فى المهد أو بلغنا من العمر أرذله ...

ماتت أمى وهى تبارك نشاطى وكفاحى ، وتذكى فى نفسى الحماس ، وتهبنى شجاعة فى عصيب المواقف ، وقد بكيتها أياما كثيرة وافتقدتها فى أيام كثيرة ، ومن عطف الله جلت قدرته أنه خص الانسان بفضيلة الصبر حتى جعل المصيبة فى الموت أخف المصائب ... كل مصيبة فى الحياة تكبر عادة مع الزمن الا الموت، فان الفجيعة فيه تخف مع الزمن ...

حكمة عزت عن الفهم والادراك

ووسط هذا الأسى والحزن ، تزوجت الصبية التى هفا لها قلبى منذ بعيد ، وكان حبى لها أصدق ماعرفه قلبى من حب ، دفاع للمجد والخير ، فيه الايثار أميز مافيه ، وفيه العطاء أجمل مافيه ،

وفيه قبل ذلك كله طهر قلما ينبض به قلب شاب

وكانت محنة ثانية قاسية ، صبرت فيها صبر القدرى الذى يخضع عادة لقضاء الله ...

ان حياة الفرد فى ذكرياته ، وكلنا متشابهون من حيث المبدأ فى هذه الحياة ، غير أن كل انسان معلق بطيره متفاوت فى حظه ، خاضع لما حوله من بيئة وناس ، وأنا كسائر الناس ، لا أملك أن أصنع حياتى بنفسى ، وانما هى من صنع القدر ، ربما كان لى فيها ماللرسام من أدوات التلوين !

لا تقتصر النكبة فى أمى على موتها ، فذلك كتاب مرسوم وقضاء محتوم ، بيد أنها الوحدة التى أحسها دائما منذ وفاتها الى اليوم ... هذه هى النكبة التى تلازمنى ، فقد كنت زوجا لسنوات وسنوات ، وأنا أب لشابين كبيرين وربما أصبحت جدا يوم يصدر هذا الكتاب ، ولى مئات من المعارف والاقارب وعشرات من الاصدقاء ... ولكننى وحيد ! ! ...

الوحدة لا تعنى أن يكون الانسان بغير ناس ، الوحدة شعور داخلى عميق ، وفراغ هائل مخيف ، لا يملؤه الزواج ، وقد يشغل بعضه الولد ، ولا يغنى فيه الناس ...

أمى وحدها التى كانت تذعر ان مرضت ، وأمى وحدها التى كانت لا تنام اذا طال بى السهر ، وأمى وحدها التى كانت تنكر أننى أكلت وشبعت مهما أسرف فى الطعام أو أتخم من طيبات

ما كانت تصنع لى من ألوان ! وأمى وحدها التى كانت تخاف على أموالى وتخشى أن تضيع الا على نفسى ، بل كانت تهبنى كل ما عندها من مال قليل ....

أمى وحدها التى عاشت لى مجزية معطية ، وكل الناس حتى من هم منى وأنا منهم ؛ كنت لهم نهبا ....

هات ، هى الكلمة الوحيــدة التى ســمعتها منهم ، وهات هذه .... كانت تقال فى الضرورة وفى التافه من الأمور ، فى الشدة وفى الرخاء ....

لم يرحمنى أحد

اسع حتى نلبس ... ودرس فى الجامعة حتى نأكل ... ثم عليك أن تذيع الأحاديث فى كل مكان ... ولا تترك مكتبــك قبل أن تكتب لنا ألف كتاب وألف مقــال ... اننا نريد كل ألوان الترف التى حرمها أو كاد يحرمها معظم الناس ! ...

مت يارجل وهات لنا مالم يجئ به انسان ...

كانت أمى تقول حين ترانى اكتب أو أقرأ أو اسعى للعيش فى جد وجهاد ... ارحم نفسك ! كلمة لم أسمعها من انسان ...

ان الناس ، كل الناس ، لم يرحمونى ... وانى لأعجب من نفسى ، هــــذه النفس التى لا تزال تؤمن بالرحمــــة والحب والغفران !...

وأعجب لنفسى وأعجب لقومى معى ....

نحن شعب ضاحك باسم ، رواح ، لا نحمل هما ولا غما بالرغم من آلاف السنين التى عشناها فى الهم والغم .... شعب بنى الأهـرام راضـيا ونصف البنـاة يتسـاقط من البرد والجوع ! ....

نحن شعب يسخر من البؤس فيحيله الى نكتة ، ويفتر ثغره للمآسى ، فيبلع مع الريق همومه ، ويهضم فى رفق مايدهمه من نكبات ...

وحتى فى الموت ، قد لا نعود من نازلة الا وفى جعبتنا حكاية مرحة أو نكتة عابرة أو قصة ماجنة ، نسمعها فى صـــفوف المشيعين أو فى صيوان العزاء ... انها نفس الحكايات والنكت والقصص التى تروى فى حفلات البهجة والسرور ! !

ان المصرى اذا افتقد النكتة فى خصمه بحث عنها فى صديقه ، فاذا عزت فى صديق أو حبيب أطلقها فى نفسه ، ومضى يرويهـا ويمثلها حتى تصير حكاية يتندر بها الناس جيلا بعد جيل !...

من هذا المعين غرف صحبى فاستطاعوا أن يحيلوا هذا الانسان المجروح المكلوم الى انسان ضاحك بسام ، فمضوا بى فى غمرة الحياة التى كنا نحياها يحملون عنى جزءا من همى ، بالنـكتة الساخرة ، والملحة العميقة ، فاذا صحبتهم تطب لآلامى ، وتعود بى الى المرح الذى أعاننى على احتمال كل مكروه واجتياز كل معبر عصيب ....

ولن أنسى الحبيب الذى مضى ، صلاح ذهنى — رحمه الله — كان قصاصا ممتعا ، وكانت لفتات ذهنه الالمعى شيئاً ملحوظاً فى فى حياتنا الخاصة مبدعا اذا سخر ، سخيا اذا تناول الحديث أو الكلام .. كان الحبيب الراحل الى جانبى فى كل المحن والارزاء

وكان عبد القادر السماحى ملحقنا السياحى فى ألمانيا الآن ، بلسما لجراحى فى تلك الأيام ، لم نفترق قط منذ ولجت الاحزان قلبى ، وكان دائما معسرا لا يفيق من الاملاق ! وكان شجاعا فى تحدى الفقر والضيق شجاعة لم ترو على لسان ولم تذكر فى كتاب ..

دعانى الى السينما ، واقترح أن نبلغها من الجيزة الى العتبة سيرا على الأقدام حتى نسمر ونقطع الطريق ! ومال فى ناصية الى بقال ، وعلمت أنه يحدث صديقنا مصطفى طه حبيب فى التليفون ليقترض منه ريالا !!

والأدهى من ذلك كله أنى كنت مثله خالى الوفاض ، وذعرت أنه لا يملك أجر الحديث فى التليفون وكان فى ذلك الوقت خمسة مليمات !! ..

ورهننا البقال ، حتى جاء مصطفى وفك الرهن وأقرضنا الريال !

ولن أفرغ من الف قصة للسماحى ، فقد كان فريدا فى خلق المشاكل ومفتننا فى النظر الى الأشياء والاحياء ، وكم تولاه صلاح ذهنى بالقفشات والحكايات ، وهو على سجيته يسخر من سخريتنا ،

ويرانا فيما نزعم ونقول صبية ينقصنا الفهم ويعوزنا الادراك ..

كانت أياماً ليس لها مثيل فى سائر الأيام ..

كنت فى تلك الفترة من مراحل التعليم ضائعا أو كالضائع ، وكان عمى لامى وزوجه الطيبة يحاولان سد الفراغ الهائل الذى تركته أمى بما أولياني من عطف وايثار .

وجاء الصيف ، فدعانى صديقى عبد المنعم البيه ، مدير البنك التجارى الآن (والصديق) أبو بكر نور الدين الى ضيافتهما فى رأس البر ، وكانا طالبين فى مدرسة التجارة العليا يجربان حظهما فى شئون التجارة ، حيث أقاما حانوتا لحسابهما هناك

وهناك رأيت فتاة راقنى فيها كل شىء ، وراقنى أن تكون لها هذه الأم الصالحة وهذا الشقيق الذى ربطتنى به زمالة العمر

ورضيت الفتاة أن تكون زوجا لى حين اطوى مابقى لى من شهور فى دراستى الجامعية ، فاذا فزت بالنجاح ، فزت بالحسنيين ، وتم قرانى فى سن مبكرة دون وعى أو تفكير ، وانما رغبة فى حياة الاسرة التى عودتنى اياها أمى اكثر من عشرين عاما ، واستقرت حياتى بهذه الزيجة عشرين عاما أخرى .

لقد ثرت على أيام الخطبة ، لا لأنها تحد من أحلام الشباب ، بل لانها تزدحم بالتكاليف ، وليس فى وسعى أن أصون ماء وجهى الا اذا ملأتها بالخيرات ، وكيف لى أن أبلغ هذه الأمنية والاسرة التى ناسبتها تعيش معا ، أم وأخ وأربع شقيقات ، وكل صاحب

طبع ومزاج،واحدة تحب الفستق ، والثانية تحب الشوكولاته ، والثالثة تفضل الجاتوه ، والعروس لا تسيغ الا المارون جلاسيه، وأمهم — رحمها الله — كانت أخفهم ريحا ، فقد كانت تحب اللب الأبيض لما فيه من فوائد للقلب والشرايين !!

وكنت أحمل فى زياراتى اليومية المتلاحقة لخطيبتى مقدارا من هذا اللب وهذه الحلوى .. لذلك كنت أرجو أن أفرغ من أيام الخطبة الأنجو من مسئوليات هذه الجبهات المتباينة ذوقا، وأفرغ لمطالب الجبهة الاصيلة التي من أجلها سعيت ، وفى سبيلها زدت الجهد فى الدرس والتحصيل

كنت كل يوم عند خطيبتى الا أيام الجمع ..

كان يوم الجمعة بالنسبة لى ولسائر زملائى الأصدقاء فى كلية الآداب يوما مقدسا ، انه يوم العقاد حيث ندوته وما فى ندوته من خير كثير

كان الأستاذ عباس محمود العقاد — ولا يزال — على رأس أهل العلم فى مصر ، وكنت — ولا أزال — أحبه وأكبر فيه جهاده فى التحصيل ، وجهاده فى حياة مصر السياسية ، وجهاده الرائع الشامخ فى قيادة جانب كبير جدا من الدراسات الأدبية العميقة التى لم يعرف لها الوطن العربى ضريبا ..

وكان مجلس العقاد لايخلو من الفكاهات العميقة والنكت الرائفة التى كانت تجرى فى مصر اذ ذاك مجرى الامثال ، وكنا نتناول

غداءنا عنــده ، نحــو عشرين أو ثلاثين من تلاميذه وحوارييه، ونخــرج بعد العصر بحصــيلة من الآراء والأفكار تهذب من نفوسنا وتشذب من جهالتنا وتفتح لنا من آفاق الرأى والتدبير ما كان مستغلقا علينا

كان يوم العقاد يساوى — فى ذمتى — دراسة شهر فى الجامعة ، لأنه يوم حافل بالعلم ، وندوة زاخرة بكل جديد مفيد ، فيهــا مهابة العالم وقدوة المجاهد ، ورصانة صاحب الرأى الذى يذود عن رأيه ولو انتهى به الأمر الى التشريد والسجون ..

انى أدين ليوم العقاد بكثير

لقد استقام عودنا فى الجامعة ، وبرزت رجوليتنا ، وانسابت فى نفوســنا بعض العــواطف التى لا تبرأ من السوء ، كالغيرة وما ينتج عن الغيرة من تصرفات

بهذا الذى حكيت بعضه ختمنا مرحلة من دراساتنا الجامعية ، وهى مرحلة حاسمة فى تاريخ كل شاب ، بعدها نواجه الدنيــا بما فيها من شرور وخيرات ..

٥

فى شهر يونيو ١٩٣٥ بدأت حياتى تمتلىء بالعبر والأحداث ..

فى ذلك الشـهر حصلت على درجة الليسـانس ، وفى ذلك الشهر احتفلت بزواجى من أم البنين ، ولكن شـيئا واحدا فى حياتى لم يجد فيه جديد ، هو الراتب الذى كنت أنقده كمحرر فى جريدة كوكب الشرق .. أربعة جنيهات تدفع لى أقساطا تبلغ أحيانا عشرة أقساط !..

وأسجل الحق .. أن « لطفى أفنـدى عبد القـادر » مدير حسابات الجريدة سلمنى راتبى فى الشهر الذى تأهلت فيه كاملا غير منقوص وفى أول الشهر ! وقد راعى الرجل هـذا الطائف السعيد الذى غمر حياتى ، وحنا على موقفى (كعريس) ذاهب يصطاف فى رأس البر ، ولحياة الشاطىء وشهر العرس تكاليف لا يجدى معها نقد الراتب على دفعات ! ...

أقيم حفل الزواج فى بيتين ، بيت للنسـاء ، وبيت للرجال ، بذلك قضى الأنسباء الجدد ، فقد كانوا الى ذلك الوقت يحرصون أشد الحرص على تقاليد المجتمع التى تأبى الاختلاط وتحـاربه فى عنف وشدة ..

أما أنا فقد حاولت عبثا أن أقنعهم بأن يقـام الفرح فى بيت

واحد ليسعد بنا أهلى وأهلها ، ويفرح أصدقائى وصديقاتها ، وانها لفرحة العمر ، وما يجوز أن تكون السعادة فيها قسمة ضيزى ، للنساء كل حواشيها وللرجال حوافيها

كان الرقص والغناء والطبل والزمر والزغاريد عند النساء ، وكان الصمت والتثاؤب يسود مكان الرجال وكأنهم فى عزاء !

وانتصرت التقاليد فى ذلك اليوم ، ثم مضت الأيام فحطمتها تحطيما ..

أقيم الفرح فى مكانين ، وكان نصيبى حيث اجتمعت السيدات ، وأجلسونى أنا وعروسى على كرسيين عاليين مذهبين ومكسوين بالقطيفة الخضراء ، ولم أجد فى حياتى حرجا مثلما وجدت فى تلك الليلة ، حرج القصير الذى يؤذيه القصر فى كثير من المناسبات! فكنت اذا سندت ظهرى الى الكرسى تدلت قدماى فى الهواء ! واذا اعتمدت على قدمى انهد ظهرى من طول الانتصاب !..

وغنت المغنية، ورقصت الراقصات ، وطال بى الانتظار لينفض هذا السامر الثقيل ، وقد كنت ملهوفا على تلك الليلة وما كنت أعلم انها مملة فارغة تافهة ، وخاصة حين نحى أصدقائى عنى وأبعدوا ابعادا ، فتساءلت عن بقية « الاجراءات » فقيل ، طعام وزفة ثم تعود الى كرسيك العالى حتى يطلع الصباح !..

وتناولنا الطعام ، الرجال وحدهم والنساء وحدهم ، وهنا فرضت تقليدا على التقاليد ، هو أن تتناول زوجتى الطعام مع

صحبى من الرجال ، وكان هذا حدثا خطيرا فى سنة ١٩٣٥

ثم نظمت الزفة ، وأشهد أنى لم أر من قبل زفة عروسين ، وكنت أرتدى سترة (الاسموكنج) وهى أسخف لباس عرفته فى حياتى ، فقد كنا فى الصيف وهى من الصوف ، وكان لها قميص خاص بياقة منشاة حيرتنى حتى استقرت فى أزرتها واستقام حولها رباط الرقبة الأسود ذو العقد الثلاث .. ونظرت الى المرآة فاذا أنا قريب الشبه بحملة القماقم فى الجنازات !..

وارتدت العروس ثوبا مرصعا بالترتر الفضة ، وانتعلت حذاء طول كعبه عشرة سنتمترات ، وبالرغم من أننى كنت شابا أعنى بأناقتى وفى وجهى نضارة ، وبى حيوية ونشاط ملحوظان ، فأن جمال زوجتى كسفنى وخاصة حين ظهرت فى ثوبها البراق ووجهها الجميل وقدها المياس كأنها نفحة من القدر رسمها فى أيام وساعات ...

ومضت المغنية على نغم (التخت) تلف بنا (الفيللا) وتدور ، مرددة المدائح والصفات الطيبة فى العروس ، واصفة جمالها وخطوها ورشاقتها ، وتبخترها وتمخطرها ! وأخذت تقول وتعيد ، ولم تجد المغنية لى عبارة تجبر بخاطرى أو تعلن عن وجودى ، حتى بدوت غريبا وأنا الى جانب عروسى ! فوقفت ضارب الدف ولاعب القانون عن عملهما ، وأمرت المغنية أن تستحى ، فكل عريس له فى الزفة مقطع أو مقطعان ، والزفة

كادت أن تنتهى وليس لى فيهـا نصيب ولم يذكر عنى شيء ، وما أظن من اللائق أن تمضى الزفة الى نهايتها وأنا فيهـا غير موجود ؟!..

وقالت بعض المدعوات .. ياله من فارح .. وقالت بعضهن كلمات مدح وثناء ، وقلت أنا — بينى وبين نفسى — يا لى من مجاهد ! حتى الزفة أجاهد فيها لأنال حقى ؟!..

وعادت المغنية الى الغناء ، وغالت فى المدح والثناء ، ورددت من عبارات المجاملة قدرا أوهن جرأتى وغمرنى حيـاء ما بعـده حيـاء ، وأسفت أن طالبت بحقى فى الزفة ، فقد كانت المغنيـة تصف رجلا آخر ، خفيف الظل جميل الصورة تتخطف من أجله قلوب النساء !!

وبعد أن دارت الزفة بنا عدة دورات ، عدنا الى (الكوشة) وكرسيها البغيض ، وما أشبه الكوشة بحديقة الحيوان ، فلقد كان المدعوون يتفرجون علينـا كأننـا صنف فريد من الوارد للحديقة فى صيف ذلك العام ؟! ...

ودعانى الدكتور طه حسين — وكان قد عاد الى الجامعة وولى منصب العميد من جديد — دعانى عقب زواجى مباشرة ، وكان يتهيأ للسفر الى أوروبا ، وكنت اذ ذاك من المقربين اليه المحببين الى نفسه ، وكان لقـاء كريما ، اذ شـعرت أننى موضع عطف جديد ، لأن الرجل سـألنى كيف رسمت لحياتى الجديدة بعد

أن فرغت من الدرس وبعد أن تأهلت فى عجلة الملهوفين ..

وكنت أرجو أن أجعل الصحافة مهنتى فى الحيـاة ، بيد أن رواتب الصحفيين لم تكن تغرى على البقاء فى المهنة الا مصاحفين ، أى عاملين فى الصحافة من بعيد ، وكيف يقام بيت وتخلق أسرة فى أعطاف جنيهات أربعة تدفع على أقسـاط بعد الحاح منقطع النظير ؟..

أظن أن هـذا الذى كان يدور فى خاطر الرجل الكبير وهو يسألنى عما رسمت لحياتى الجديدة وخرجت من عنده بعد أن أوصى بى سكرتير الجامعة ليعيننى فى احـدى الوظائف الخالية بعشرة جنيهات ، تضاف اليها جنيهات كوكب الشرق الأربعة ، وهذا دخل يحسد عليه صاحبه ، فانه يسـاوى الآن سبعين أو ثمانين جنيها اذا روعيت تكاليف الحياة اليوم وتكاليفها فى تلك الايام .

وعدت فى شهر سبتمبر من رأس البر لأشغل وظيفة (كاتب تملى) فى قصر العينى ، وتملى هـذه بشـدة اللام تعنى كلمة (دائم) فأنا كاتب دائم جعلوا اختصاصه أمور الحسابات ...

يالها من داهية ! كاتب حسابات لشاب لايعرف فى الحسابات شيئا ، ولا يفرق بين الاستمارة ٥٠ ع ح و٦٢ مكرر ع ح !! ..

يالها من خاتمـة مضنية مؤذية لدراسة التـاريخ الحديث والتخصص فيه على عمق ليس قليلا أو يسيرا

« كاتب تملى » ••• وفى القصر العينى !! ••• حيث المرضى والروائح الكريهة ومناظر الاطباء والممرضات والجرحى،والمتنيلات الصارخات للائى يستقبلن كل صباح أمواتهن من القصر العتيد ••

« كاتب تملى » فى هذه الدوامة التى تفل أعصاب من قدت أعصابه من حديد ، وأنا انسان ان وصفوا له جراحة قريب أو غريب شعر بغثيان ورجفة ، وان أعد الطبيب حقنة لمريض فى البيت خرج منه جزعا لا يلوى على شىء ! •••

أما بعد •••

فقد تبعت الوظيفة الجديدة مسئوليات أخرى ، اذ ألحقت بها خزانة من حديد فيها (السلفة) وهى مثبتة الى حائط فى حجرة سكرتير الكلية « على حسنى » ولم يكن مكتبى فى حجرة السكرتير ، بل كان مكتبى فى حجرة أخرى بين خمسة عشر مكتبا جلس اليها موظفون فى أحجام تملأ العين ، وكان مكتبى الى جوار طاولة رئيس الفراشين وقد اختص بطبع محاضر مجلس الكلية وأوامر ادارتها على (البالوظة) بعد أن يتناول مع سائر الموظفين الافطار اللذيذ المكون من الفول المدمس والبصل والسلطة والشطة ، وأحيانا تعمر صحاف الافطار بنوع من الطعمية حلو المذاق •••

لم يؤذنى ازدحام الحجرة بأدوات العمل من أقلام وأحبار ومطابع للبالوظة أو ضجيج الموظفين وطعامهم وروائح هذا

الطعام ! وانما آذانى وضيق صـــدرى قصـــة السلفة الراقدة فى الخزانة فى حجرة سكرتير الكلية ، فقـــد كانت الخـــزانة مثبتة بالحائط على ارتفاع مترين ، وقد عالجت عجزى فى هذه الناحية باستعمال كرسى أقفز عليه لاصل اليها ، بيد أنها كانت تستعصى على أحيانا ، وعالجت هذا أيضا بالالتجاء الى (ابراهيم أفندى) وكان موظفا ضخما رقيقا فاره الطول قوى العضلات ، يستطيع أن يفتحها وهو ثابت على الأرض فما به من حاجة الى كرسى وهو يكاد يبلغ فى طوله مترين !

ان المصيبة ليست فى الخزانة نفسها ، بل المصيبة فيما احتوت عليه الخزانة من مال ، كان فيها واحد وعشرون جنيها ، تشترى منها (القصارى) والأرانب والمقشات وفرش البلاط وغير ذلك من تفاهات جديرة حقا برعاية متخرج فى كلية الآداب المفروض أنه درس التاريخ الحديث من الأعماق ! ...

ليست المصيبة أننى توليت السلفة وأنا ثقة فى الجهل بشئون المال ، أو أنها فى خزانة على ارتفاع مترين ويستعصى فتحها فى بعض الأحيان ، بل المصيبة أن القانون المالى يتهمنى بالتبديد ان جاء مفتش المالية وجرد الخزانة فوجد فيها قرشا ناقصا أو قرشا زائدا ، فالعقاب مفروض فى الحالتين ، نقص مال الدولة حبة أو زاد حبتين ؟ ! ...

لقد أزعجنى أن ينطوى القانون المالى على هذا السخف ...

قلت لمسجل الكلية ـ رحمه الله ـ أفهم أن يعاقبني القانون المالى ان أنا بددت قرشا أما أن يعاقبنى اذا زاد فى الخزانة قرش فذلك أمر غير مفهوم .. ونظر الى المسجل نظرة البرم الضيق الصدر الذى لم يعتد تعقيبا من موظف على أمر من الامور وقال : اذهب الى مكتبك يا أفندى ولا داعى للفلسفة ؟ ...

ونفضت نفسى من صدرى ، وأخذت أناقشها على اعتبار أننى أكبر من (أفندى) ... ماذا يكون أمرى من هذه الوظيفـــة وهذا المسجل وتلك الخزانة ؟

وانتهيت الى قرار .

وذهبت الى (البك) المسجل فى الصباح ، وقذفت بالقـــرار الذى تم عليه الاتفاق بينى وبين نفسى ... وقلت : ياسيدى ، حيث أن القانون المالى قانون مغفل يؤثم من ينقص مال الدولة كما يؤثم من يزيده ، وحيث أننى لا أستطيع تغيير هذا القانون ، ووجودى فى الوظيفة يقتضى حماية الخزانة وما فيها من مال ، وحيث أن هذه الخزانة ليست فى حجرتى بل فى حجرة ســـكرتير الكلية ، فاما أن أنقل أنا الى حجرة السكرتير أو تنقل هى الى حجرتى ، وأترك لك الخيار حتى غد ...

وفى اليوم التالى دعانى المسجل وأجلسنى الى جواره ، وأخذنا نترجم معا محضر مجلس الكلية الى اللغة الانجليزية ، وفجأة طلب زميلا من زملائى الموظفين ، وأخذ يسبه ويشتمه ولم يبق على

واحد أو واحدة من أسرته الا ومس عرضه وعرضها من بعيـد أو قريب ثم طرده من الحجرة وقال : هكذا يجب أن يعامل كل من يتفلسف من الموظفين ! •••

وبعد أن فرغنا من ترجمة محضر مجلس الـكلية ذهبت الى سكرتيرها وصبى المسجل وخدنه ، وان لم يكن فظا أو غليظا مثله ، بل كان مهذبا رقيقا بلسما للجـراح التى تخلفها سياسة المسجل وطباعه ، وقلت له : ياصاحبى قل (للبك) المسجل ، اننى احتجاجا على ماصدر منه فى حق زميل من زملائى ، واهماله لطلبى فى نقل الخزانة أو نقلى اليها ، قد قررت ألاأعودالىمكتبى حتى تفسر لى أسباب هذه التمثيلية التى تمت فى حضورى ، ويتم نقل الخزانة أو نقلى اليها ••

كان عميد كلية الطب فى ذلك الوقت على (باشا) ابراهيم اعظم الجراحين الذين عرفتهم مصر فى عدة أجيال ، وكنت واحدا من موظفيه ، غير أننى موظف مشاغب ، كما كنت بالنسبة اليه عضوا مشاغبا فى مجلس اتحاد الجامعة وكان هو حينئذ رئيسا لهذا الاتحاد •••

وطلبنى الاستاذ العميد حين شكانى المسجل وقال فى ما قال مالك فى الخمر ••• وشرحت (للباشا) العميد وجهة نظرى فى قضية الخزانة والسـلفة وبينت رأيى فى التمثيلية التى مثلهـا المسجل وزميلى الموظف ، وفيها من بذاءة القول ماينبغى أن يعف

عنه العاملون فى الجامعة ...

ونظر الى على (باشا) وفى عينيه ما فى قلبه من عطف وايثار ، ومنحنى حق التغيب عن الكلية والعمل فى جريدة كوكب الشرق، فذلك ـ كما قال (الباشا) ـ العميد مكانى الطبيعى وليس مكانى السلفة والحسابات ، ولا بأس على الدولة أن تنقدنى الجنيهات العشرة أول كل شهر ، فانى أخدم مهنة على أى حال ...

وعجبت أن تكون وظائف الدولة هكذا خلعا يتصرف فيها الرؤساء على هواهم وسرنى ما صنعه (الباشا) ، فذلك غاية مناى وأمنية حياتى ، أن أعمل فى الصحافة وضمان الرزق موفور وأكيد ! ...

ولكن الرجل كان أحصف منا جميعا .. كان يريد أن يبعدنى عن موظفيه حتى لا أبث فيهم روح الثورة على النظم المعمول بها ، وعلى (باشا) ابراهيم كان وئيد التطور وغير مكروب على التعلق بجديد

وكان وجود موظف يحمل درجة الليسانس فى قصر العينى شيئا طريفا يخالف المفهوم فى اختيار الموظفين ، وهم عادة غير مؤهلين ، وان تأهلوا فما ينبغى أن يحدث فى ذلك طفرة ويكون منهم جامعيون ! ان ذلك فى الحق شىء غير مقبول وغير مهضوم !؟..

ورأى (الباشا) العميد فى ندبى للعمل فى كوكب الشرق

اغلاقا لباب يأتى منه الريح ، فمن يدرى ؟ أبعيد على هذا الموظف المشاغب أن يذهب الى جريدته فيكتب فى قصر العينى وادارته ما يفسد هدوء العاملين فيه ، الراضين عن سوءاته ، المؤمنين بأن ما فى القصر هو خير ما يكون ؟

***

أمضيت سبعة أشهر فى قصر العينى (كاتب تملى) فى الدرجة الثامنة براتب شهرى قدره عشرة جنيهات ، وكنت أسكن فيللا فى حدائق القبة وأملك سيارة صغيرة ، وكانت تقوم على خدمتنا (أم أمنية) وهى (دادا) زوجتى ومرضعة شقيقتها من قبل ، وكانت الدادا مسرفة اسرافا ملحوظا ، اذ كنا نعطيها للصرف على طعامنا عشرة قروش يوميا ، وكانت العفاريت تركب هذه القروش العشرة ، فتضيع كلها على اللحم والسمن والعيش والخضروات والأرز والفاكهة ...

كانت القروش العشرة مالا كثيرا فى تلك الأيام !

استقلت فى نهاية الشهور السبعة من وظيفتى العتيدة ، ودهش كثيرون لهذه المغامرة الخطيرة فقد كانت الاستقالة من عمل حكومى مغامرة وخاصة اذا كنت على درجة دائمة ، وكانت الدرجة الثامنة بجنيهاتها العشرة فى تلك الأيام وظيفة يسيل من أجلها لعاب مئات من الزملاء ! ....

واستقلت باتفاق مع صديقى فريد زعلوك وكيل اتحاد الجامعة والطالب بكلية الحقوق ، ونور الدين طراف سكرتير الاتحاد

والطالب بكلية الطب ، فقد اختارانى لادارة هذا الاتحاد براتب خمسة عشر جنيها ، فضلا عن سلطات ملحوظة فى ادارة الاتحاد والقيام على خدمة لجانه المختلفة وهى لجان كان الى فيها أيام التلمذة نشاط ملحوظ

وكان الاتحاد — كما سجلت من قبل — هيئة موجهة لحياة الطلاب الاجتماعية والرياضية ، والسياسية أحيانا ، وكان من بين أعضائه ممثلون لأساتذة الجامعة وهم على (باشا) ابراهيم والدكتور على مصطفى مشرفة عميد كلية العلوم والدكتور طه حسين عميد كلية الآداب والدكتور محجوب ثابت عن الخريجين والدكتور عبد الرزاق السنهورى عميد كلية الحقوق والاستاذ محمد شفيق غربال أستاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب ، وبعض من شباب الأساتذة عن الكليات الجديدة التى ضمت الى الجامعة فى سنة ١٩٣٦

وشهدت فى هذه الوظيفة الجديدة تيارات الغيرة والحقد تدب فى نفوس بعض الاساتذة ، ومنذ ذلك التاريخ تبدل رأيى فى أنصاف الآلهة ، وعلمت أن أساتذة الجامعة يجرى عليهم قانون الناس ، الناس بما تضطرم به قلوبهم من غل وموجدة

وأخطر ما رأيت فى هذه الحقبة من معادن الرجال تلون بعض هؤلاء الرجال ، وخروجهم على المألوف من القيم الأخلاقية ، وتناقضهم مع ما يكتبون أو يقولون ، ففى غمرة الجهاد الذى

كانت تعيش فيه مصر من أجل حريتها واستقلالها ، وتحمل بعض هؤلاء الأعلام المتاعب لمشاركتهم فى هذا السعى الحميد ، رأيتهم يأتمرون بليل للقضاء على حرية اتحاد الجامعة ، وقد تمكنوا من قص ريشه وتقليم أظافره ، وهم الداعون الى الحرية بلا قيد ، الساعون الى انطلاق النفوس بلا تحرج ، الساخطون أبدا على كل ما من شأنه أن يحول بين الانسان وحق التعبير عما يريد

وأسوأ ما فى تلك المؤامرات الوسائل التى اتبعت فى حياكتها ، وأخشى أن أذكر طرفا منها فأكشف عن عورات من ستر الله عوراته ومضى فى ذمتنا جديرا بالذهب حين تقوم معادن الرجال !..

ما رأيت رجولية الرجال فى الذود عن فكرة من الفكر مثلما رأيتها فى نور الدين طراف وفريد زعلوك ، وهما خصمان من الناحية السياسية العامة الا أنهما قرينان متشابهان فى الخلائق والصفات كلما جد الجد واقتضى الدافع البذل والتضحيات ، وقد رأيتهما يتحديان القدر فى تحدى بعض هؤلاء الأساتذة الذين شنوها حربا عاتية على حريات الاتحاد وسلطاته الواسعة

لقد فرحت بالصديقين فى المعركة ، وكنت — بحكم الوظيفة — لا أملك الا أن أبارك كفاحهما من بعيد ..

كان اتحاد الجامعة فى حياتى مفترق طريق

كنت أريد أن أكون صحفيا ، بيد أن جريدة كوكب الشرق وراتبها الضئيل الواقف عند الجنيهات الأربعة لاتنقص ولاتزيد، حفزنى على تجنب المهنة والبحث عن القوت فى عمل آخر يحسن الوزن والتقدير ، وكنت قد عزمت بعدئذ على أن أكون موظفا فى ادارة الجامعة وأمضى فى السلك قدما ، غير أن ذل الوظيفة وما شاب جوها من مسجل وخزانة وسلفة وغير ذلك من شجون، جعل النأى عن قصر العينى ضرورة تمليها حاجة النفس الى راحة القلب والضمير .

ورضيت العمل فى اتحاد الجامعة ، فلما أصبحت ورأيت أساتذتى من أهل العلم والرأى يلجأون الى ما يلجأ اليه عامة الناس ، ويصطنعون الحياة كما يصطنعها غيرهم ، تحطم التمثال الذى كان لهم فى نفسى ، وهوى أنصاف الآلهة كما تهوى الشهب فلا يعرف لها قرار ! . .

ثم فرغ أصدقائى أعضاء مجلس اتحاد الجامعة من دراساتهم الجامعية فأصبح طراف سكرتيرا لرئيس مجلس الوزراء ثم طبيبا فى الصحة ، وأصبح فريد زعلوك محاميا ، واختلف الآخرون الى وظائف هنا وهناك ، وجاء الى المجلس أعضاء جدد يمثلون النظام الجديد فى تفاهته ويأسه وخنوعه

لم يكن فى وسعى أو فى طبعى أن أعيش فى جو من التفاهة واليأس والخنوع ...

وفرغت فى ذلك الحين من اجتياز امتحان الماجستير عن جانب من تاريخ صحافتنا ، والتقى حصولى على هذه الدرجة العلمية بالتفكير الجدى فى انشاء معهد للصحافة فى كلية الآداب

ودعى محمود عزمى وكنت أعرفه باسمه دون رسمه ، الى تنظيم دراسات هذا المعهد ، وقد استطاع أن يرتب له ويعد المواد الملائمة لنجاحه ، وجعل طلابه من حملة الليسانس أو البكالوريوس بعد أداء امتحان عسير

وفى ذلك الوقت كانت تربطنى بالاستاذ أحمد الصاوى محمد صداقة ومودة ، وهو فى الوقت نفسه صديق للدكتور محمود عزمى ، فاقترح عليه أن يستعين بى معيدا فى معهد الصحافة

وقابلت محمود عزمى فى (بار اللواء) وهو مكان كان يلتقى فيه عادة الصحفيون والرقباء — وكنا فى سنة ١٩٤٠ وفى أول العهد بالحرب العالمية الثانية — وتحدثنا وكأنه يجرى لى اختبارا ، وأعجبنى الرجل وأحببته ، وقد ندبنى معيدا له ، وكنت بذلك فى تاريخ معهد الصحافة أول معيد

ومن عجب أن مثل هذا الرجل العظيم لم تعرف له الصحافة مقامه المقدور الى اليوم ، ولم تسع لتخليد ذكره فى لوحة أو تمثال أو كتاب ، ومن عجب أن هذا الرجل العظيم الذى أنشأ معهد الصحافة وذاد عنه خصومه ووضع له الأسس وأرسى القواعد لم يذكره هذا العهد أو هذا القسم بكلمة خير ، كأن نكران الجميل طبع

فى أهل العلم ، وان علمونا أن نكران الجميل لا يكون الا فى القلوب التى خوت من كل معنى جميل

وقد بدأت مع محمود عزمى فى معهد الصحافة كما يبدأ الصبى المؤمن بأستاذه ، وأخذت أدنو الى قلبه كما يدنو الابن من أبيه ، فلم تمض شهور الا وأنا جزء منه فى كثير من الآراء والافكار

كنا نختلف فى السياسة وفى الدين ، فهو لم يكن يؤمن بالوفد ، وأنا كنت قريب الصلة بخيار الوفديين ولى رأى طيب فى منهاج سياستهم العامة ، وكان هو لا يؤمن بدين فالدين عنده المعاملة ، وأنا شاب مؤمن بدينى وأتعصب له أحيانا تعصب الجامدين

وفيما خلا أمور السياسة والدين كنت أحب كل شىء فى عزمى وأرى فيه قدوة تحتذى وخاصة فى مناهج الدرس ، وتبرمه الشديد بأوضاعنا الاجتماعية والسياسية التى ترضى لشعبنا هذه الحياة الذليلة التعسة الخالية من كل معانى الحياة

وكانوا يتهمونه بالشيوعية ، وأنه زوج لسيدة روسية حمراء .. ولكن الرجل لم يكن شيوعيا بل كان يأمل أن يعيش كل الناس فى مستواه ، وكان هذا مطلبا عسير التحقيق فى أى مذهب سياسى ، لأن حياته لم تخل من الترف له ولزوجه ولكلبته بوشكا !!

وكان محمود عزمى معدنا طريفا غاليا يستحق تقدير الوطن . . . كان يكره الملكية ويعتقد أن هذا النظـام البغيض هو أس تأخرنا ، ويؤمن بأن أخلاق الشـعب المصرى سـتكون جديرة بالذكر والافتخار ان جاء يوم ونحى هـذا الشـعب عن رقابه كابوس الملكية وخاصة كابوس الطفل فاروق ! ...

وعجبت للرجل ...

كان رقيبـا للصحف فى أعطاف رقـابة انجـليزية ، وكان مستشارا فى الحكومة ، وكان أستاذا للفن الصحفى ، ومع ذلك فهو يجهر بهذه الآراء لا فى خفيـة ، بل علانية فى بار اللواء ، وفى محاضرات المعهد ، وفى الطريق العام ...

كان يقول : يا أسـتاذ أنا مع الغـرب حتى ينتصر الروس والامريكان ، وأنا فى الحكومة بآرائى هـذه وأفكارى هـذه حتى تضيق بى الحكومة ، وأرجو أن تـكون معى فى المعهـد حتى نمكن لهذه الأفكار فى ضمائر هؤلاء الاولاد ! ...

وبذلك فسر لى لماذا كان رقيبـا للصحف ، وماذا يعنى من اقباله على معهـد الصحافة وليس له فيه رزق موصول جـدير بهذه العناية وهذا الاقبال .

لم تخل سيرة عزمى من مآخذ لانه انسان ، وكل انسان عظيم تعد هفواته وتحسب له سوءاته ، وهى عادة كم قليل ...

أنا مدين لهذا الرجل السنوات التى جلست فيها الى جواره

معيدا فى معهــد الصحافة ، فقد تعلمت كيف يملك الاســتاذ المحاضرة والمستمعين اليها ، وكيف يجادل ويحسن الجــدل ، وكيف يكون جريئا فى الرأى ، وكيف يعترف بالخــطأ ان كان ثمة خطأ فى فكرة أو معنى

لم يكن يبخل على بالتشجيع ، وكان يقول لتلاميذه ، وكانوا بضعة طلاب كبار وطالبة واحدة ، وكلهم أكبر منى ســنا وأنا أحدثهم تخرجا فى الجامعة ، كان يقــول لهم : اذا ذكرنا تاريخ الصحافة المصرية فأتنى مرجعه ، وانه ليأخذ منى ليعطيهم ، .. وكم أخجلنى تواضعه . . .

أين بعض الأساتذة من عزمى ؟

لقد قرأت كتابا عن الصحافة المصرية ، فرأيت مؤلفه قد نقل عنى بعض فصــوله نقــلا ، أو لعله لخصها فأحسن تلخيصها ، وما ساءنى الا أنه نسى أصالته العلمية ، فبخل بالاشارة الى جهدى ، وهو جهد أخذ منى معظم عمرى . . .

أعود الى من عف عن أن يحجب عن صاحب الفضل فضله ، أعــود الى عزمى وكيف وجهنى وأحسن تدريبى ، فقــد كان يكلفنى القــاء بعض الدروس عنه ولا يتركنى حتى لا يأكلنى الأولاد على حد تعبيره ! ولم يتركنى ألقى محــاضراتى وحــدى الا بعد أن اطمأن الى أننى أخذت نهجه وعرفت طريقته ، وملكت جزءا يسيرا من طرائق جدله ونقاشه

أمضيت ثلاثة عشر عاما أستاذا فى معهد الصحافة ، وهنا أصدرت أحسن كتبى ، وكنت حريصا أشد الحرص على أن آخذ سمت الأستاذ الذى يتحرج من الكبيرة والصغيرة على السواء ، ويأبى أن تبدو له عورة فى عمله أو خلقه ، أو تحوم حوله شبهة تقوى على احراقه أو مس ظفره

وشعرت فى الجامعة بحريتى كانسان مفكر ، أذيع الرأى الصحيح ، وأقول كلمة الحق ، وأحكم فى الأمور بصدق فى غير تهيب أو حياء أو وجل

وكنت قد حصلت على درجة الدكتوراه ، ثم مضت الأيام تجرى وشغل عزمى بواجب جديد لوطنه فى هيئة الأمم فأخذت مكانه فى سياسة شئون المعهد ، وكطبعنا فى بلادنا لم يسغ كثيرون أن تلقى المسئوليات على كاهل شاب بدافع من الحقد أو الغيرة أو بدافع من حب البقاء ، البقاء للشيوخ وحدهم ، وهذه جبلة الاجيال المريضة التى تريد للحياة أن تقف دون تقدم أو ارتقاء

ان فرق الزمن عامل هام فى تطور الأحياء ... ان الاجيال المقبلة خير ألف مرة من أجيالنا ، واذا لم يصح فى هذا الامر الحساب عادت الدنيا القهقرى .. وهيهات .. ان عقارب الساعة لن تعود الى الوراء ..

وفى ذلك الوقت — أى من نحو خمسة عشر عاما — برز

شاب بين شباب الأساتذة لم تر له كلية الآداب نظيرا ، لا فى خلقه ولا فى علمه ، ولا فى رجولبته التى تضاءلت أمامها رجولية كل أستاذ وعميد مر بتاريخ تلك الكلية

الدكتور زكى محمد حسن

لم يكن قد بلغ الاربعين وله فى فنه وعلمه خمســـون كتـــابا ضخما وبحثا عظيما عميقا باللغات العربية والانجليزية والفرنسية والألمانية والايطالية ، وهى مراجع وبحوث لم يقف فضلها عند جامعتنا بل كانت المعين الذى يغرف منه أساتذة العالم فى هذه الفنون

كان زكى حسن محســـودا من التافهين ، مكروها من جميع أساتذة المدرسة القديمـــة بلا اســـتثناء . . انه شىء جـــديد فى كليـــة الآداب . . انه علم يلتف حوله كل شباب الاساتذة والمعلمين .. انه العلامة العظيمة للجيل الصاعد من أهل العلم ..

انه لعلى خلق كريم ..

لقد أحببته حين استجاب هـــواى لهـــواه ، والتقى ريحى بريحه .. ذلك أننى لا أحب الكذب ولا النفاق ، ولا أخاف ، وهو أدق منى فى كل تلك الخلائق والصفات

كرهه بعض من قدمته المصادفات ، وأعلته التوصية ، وصدرته الوساطة الصغيرة ، وكانت كل بضاعته لبلوغ هـــذا الشـــأو الملحوظ ، الكذب والنفاق ودناءة النفس وخسة الطباع

هؤلاء هم الذين لا يستجيبون لهوى الصاحب العظيم العالم الفذ الذى فقدناه ..

لقد صاحبت زكى محمد حسن أستاذا وعميدا كما صاحبته بعيدا عن كلية الآداب ، فلم أر فيه سوءة ، الا أن تكون الأخلاق القوية والشهامة والعلم الغزير ، وأخذ الامور بجد وعمق من سوءات الاساتذة والمعلمين ! ..

انى أعلم ما ستتركه هذه الكلمات فى نفوس بعض الناس .. سيفرح بها كثيرون من أصدقاء أعلم من ولى مناصب العلم فى كلية الآداب ، لأن فقيدنا العظيم زكى محمد حسن تناولته يد الجحود ونكران الجميل ، فحاولت أن تطمس فضله ، وتخفى شأنه ، ولكن هيهات .. هيهات أن يحجب الجحود ونكران الجميل خمسين بحثا ضخما عميقا تتداولها فى بقاع الأرض خمس لغات !..

لقد كان زكى حسن فلتة من فلتات الزمن ، وسيبقى فى عين الزمن ما بقى الكون ، وبقى فى الكون انسان

الصحيح اننا نقسو على أنفسنا ونهد أعصابنا حين ينساب الى قلوبنا الحسد .. ان الحياة أعز على من يعرف كيف يحياها من أن يشغلها بالحسد وما يخلفه الحسد من كراهية وحنق وموجدة

انما أنت تقسو على نفسك وتفسد صفاءها ان حسدت ،

فالحسد داء يمرض له صاحبه قبل أن يصيب خصمه بشر أو سوء

كان لنا زميل فى كلية الآداب أخذ يحارب صاحبا له فى رزقه وعمله ، فلما انتصر الزميل ونحى الصاحب عن وظيفته ، سألوه: ما حظك فى هذا كله ؟ فأنت فى قسم غير قسمه ولا منافسة بينكما فى ميدان العمل أو فى أى شأن من شئون الحياة ؟

قال الزميل — غفر الله له — يا أخى عنده سيارة ويسكن عمارة من أفخم العمارات ، ماذا هو حتى لا نكون نحن كما هو ؟!!

ولايزال هذا الزميل يقسو على نفسه ، لان صاحبه نحى عن عمله ، فاذا الله سبحانه وتعالى يفىء عليه من النعمة أضعاف ماكانت له .. كان يسكن عمارة فأصبح يملك عمارة ... كان صاحب كرسى فى كلية الآداب ، فاذا هو اليوم يملك فى كل بلد عربى كرسيا يترضاه ويهواه ! ...

أما الزميل الكاره الحسود الحقود الذى قسا على نفسه فقد ارتفع ضغطه وجرى السكر فى دمه ... شفاه الله وعافاه ! ..

النجاح شىء جميل ، ولكن الناس لا يتركون لناجح فرصة التأكيد والتبريز ...

ان المتخلفين يسرهم دائما أن تبقى الصفوف واقفة ، فاذا تحركت صرخوا اذ لا ينبغى أن تسير وهم عن لحاق الركب عاجزون ...

لقد صرخوا وعلا صراخهم كلما أصاب واحدا منا نجاح أو توفيق ...

انني أرى فى العمل لونا من ألوان العبادة ... انني أكره الاجازات لان فيها البلادة ، ولا أفهم أن يسترخى انسان ساعة وفى مقدوره أن ينتج ويفيد ... ان الراحة عندما ننام ، وفى غير هذا الوقت ما ينبغى أن نسكن أو نهدأ الا أن نكون من أصحاب الحس البليد ...

كنت مدرسا نشطا فى سنة ١٩٤٥

غيرى ملأ الفراغ بلعب النرد أو الورق أو السهر أو الزيارات، وملأته بالعمل الذى أحبه وأخلق فيه

انصرفت الى تحرير مجلة نسائية ، وأشرفت على اصدار مجلة للأطفال سميناها (السكتكوت) فصرخ المتخلفون كيف لهذا الشاب أن يفيد ويستفيد ؟ ! ...

وذهبوا الى مدير الجامعة وفى يمينهم قالة السوء عن أستاذ الصحافة ، كيف يخرج على تقاليد الجامعة وآدابها ويشتغل بالصحافة ؟ !

وطلبنى المدير

— هل أنت الذى تصدر مجلة الكتكوت ؟

— نعم .

— هل يليق بأستاذ أن يصدر مجلة للأطفال ؟

ـــ الرأى عندى أن اصدار مجلة للأطفال لا يقل قدره ولا شرفه عن اصدار صحيفة كجريدة الأهرام .

ـــ أما وجدت أكرم من لفظ كتكوت ؟

ـــ ان الكتكوت لفظ دقيق لطيف لكل شيء صغير ، وهى مجلة للأطفال ، وكل طفل ... كتكوت ! !

ـــ أما كان يحسن أن تختار للتطبيق العملى مجلة غير مجلة للأطفال ؟ .

ـــ اننى تلميذ سعادتك ... فأنت أعظم طبيب يحسن علاج الاطفال فى مصر ، اننى انما أحاول أن أنهج نهجك وأقفو أثرك ! ...

وهنا وقف « سعادة » المدير فانصرفت ، وبعد أيام نقلت من كلية الآداب ...

كنت أظن أن نقلى من كلية الآداب جاء تحقيقا لرغبة مدير الجامعة الذى ساءه أن يشغل مدرس الصحافة فى كلية الآداب وقته وفنه فى اصدار مجلة للأطفال ويسميها الكتكوت !

والصحيح أننى نقلت من كلية الآداب لأننى سجلت كلمة حق فى كتاب

تضمن كتابى فصلا عن الصحافة فى عهد الخديو اسماعيل ، ذكرت فيه أن الخديو المذكور كان « ضرورة لمصر بخيره وشره » وما كنت أعتقد أن التجسس على الأساتذة يبلغ هذا القدر من

العناية حتى تضبط لهم عبارة فى كتاب ، وهى عبارة عادلة تضع الخديو المذكور فى تاريخ الصحافة المصرية فى مكانه الصحيح

نقل الكتاب الى وزير المعارف ، فنقله الوزير الى القصر ، فصدر الامر بنقلى من كلية الآداب ، لأن الخديو اسماعيل كان ضرورة لمصر لانه الخير كله والفضل كله !! وكل من يحاول أن يخدش هذه السيرة العطرة أو يترك على آثارها الغبار غير جدير بأن يصان له مقام ؟! .

ونقلت فى (هوجة) التصفية ، وكانوا يقصدون بالتصفية ، نقل غير الصالحين من الاساتذة والمعلمين بمناسبة تطبيق كادر القضاء على أعضاء هيئة التدريس فى الجامعة !

وبالطبع كنت واحدا من غير الصالحين وعددهم سبعة وعشرون أستاذا ومدرسا ....

ثم سقطت وزارة صدقى (باشا) وجاءت وزارة أخرى وفيها وزير للمعارف جديد ، راجع التصفية فأجرى فيها (تصفية) أخرى ، عاد على أثرها الى الجامعة ستة وعشرون أستاذا ومدرسا من المنقولين ، وكنت واحدا من العائدين ! !

ومع هذه الهزات الخطيرة فى حياتنا العلمية ، كنا ننتج ونؤلف ونعلم بشرف وأمانة

٦

كانت أم البنين ـــ رحمها الله وغفر لهاـــ تريد أن تكون حياتها كلها ترفا ، وتريد أن يتحدث الناس عن هذا الترف ، وقد ورثت من طباع أبيها الشيء الكثير فقد كان جميل الصورة أنيق المظهر من أبوين تركيين على ثراء عريض أخذ حياته فى بذخ ، وقطعهـا ركضا يغترف من الدنيا ما فى الدنيا من مباهج وترف ، وقد كلفه ذلك كل ما ورث من مال وأرض وعقار ، ثم بكر فى الرحيل الى جوار ربه وهو فى شرخ الشباب .

وكانت أم البنين صـورة بديعة لأبيها ، وكانت تزعم أنها لن تعيش طويلا ، وخاصة بعد أن مرضت مرضـا خطـيرا فى مطالع الحرب العالميـة الثانية ، وقمنـا جميعا أنا وصحبى وأهلها على خدمتها ومعالجة مرضها الذى حشدنا لم خيرة أطباء مصر فقـد كانت أم البنين شيئا عزيزا علينا ، وكانت وردة الأسرة ، وكانت سيدة مجتمع نادرة المثال .

كانت لى مكتبة تضم ألفى مجلد فى التاريخ والأدب والاجتماع معظمها من المراجع النادرة التى أفاخر بها مكاتب ألف آسـتاذ وأستاذ وقد بعت المكتبة لأنقد الاطباء مايستحقون .

وكانت لى سيارة جملة كلفتنى جهـد كتابين ، سـهرت لتأليفهما شهورا فبعتها لاسـد بعض المطالب التى كان يفرضها

علاجها من المرض الخطير .

لقد كانت أم البنين أعز من المكتبة وأعز من السيارة ، وأعز من كل شيء عزيز ....

وكان صحابى يزورونها فى كل يوم ، وبعضهم يحمل الفاكهة النادرة ، أو الطيور السمينة أو غير ذلك من ألوان الطعام ، فقد كان مرض أم البنين يحتاج الى طعام دسم وأكل كثير ، وكنا فى حرب ، وكل شيء فى زمان الحرب ثقيل التكاليف ...

وكان أهلها يقدمون (الخدمة) وهى على أى حال ليست بالشيء القليل ! وكنت أشارك الأهل فيما يصنعون ، وأذكر أنى بقيت عند قدميها تسعين يوما لا أعرف الشارع أو أزور أحدا حتى اجتازت أول مراحل النقاهة من مرضها الثقيل

وشفيت أم البنين ، فاذا هى سيدة على حياتنا جديدة ، يطوف بها دائما طائف يزعجها ويزعجنا ، فقد كانت واثقة أنها لن تعيش ....

وخشينا أن يصدق حسها ، فلم نرد لها طلبا ، ولم نعقب على رأى لها بنقد ثقيل أو خفيف ، فقد أصغيت الى مطالبها فى عطف وايثار حتى سمانى أصدقائى بمحقق الأوهام وحالب اللبن من العصفور ! ! ....

ذهبنا مرة نشترى سيارة صغيرة فتعلقت بأخرى كبيرة أنيقة ، ورضخت لرغبتها خشية أن تموت وفى نفسها أمنية لم تتحقق ،

وكلفنى ذلك كل مانقدته على تأليف كتاب ضخم لجريدة الأهرام ، وأكملت جزءا من السيارة بأربعين حديثا أذيعت لى فى اذاعات الشرق والغرب ، ثم تبقى من ثمن السيارة بضع مئات من الجنيهات سددت على أقساط كنت أسعى لتحصيلها كأنى مسوق بنبوت أو كرباج ! ....

وقالت أم البنين : هذا الأثاث قديم لا أحبه ، وهذه الشقة ثقيلة لا أبغاها ... وانتقلنا الى شقة جديدة فى مصر الجديدة ومعها أثاث جديد ، ولم تمض سنة الا وانتقلنا الى الزمالك بأثاث جديد ، ثم الى حدائق الاورمان بأثاث جديد ....

ألست محقق الاوهام وحالب اللبن من العصفور ؟ ! ...

وسافرت معى أم البنين الى أوروبا حين وضعت الحرب أوزارها ، وكنت مدعوا من اليونسكو ، ولى على ذلك منحة سخية تضاف الى راتب الأستاذية ، فاشترت أم البنين بمئات الالوف من الفرنكات ثيابا جديدة تفاخر بها سيدات مصر ، وعدنا الى القاهرة مدينين بآلاف أخرى من الفرنكات !

كانت أم البنين كل شىء عندى ، وكنت لها ولبعض أهلها بما تملكه يمينى من خير كثير أو قليل ، وكأننى مقطوع من شجرة ليست لها فروع أخرى أو جذوع ، مع أن أهلى يسد ظلهم الشمس ، وهم يشرفون من ينتسب اليهم ، بيد أن أم البنين كانت كل شىء عندى ! ..

ماذا يقول الناس عنى ؟

انه الحب ... وليس غريبا أن يحب الانسان زوجته الى هذا المدى ، أليست أم البنين ؟ أليست هى شريك عمرى وكأنها بنتى وأختى ؟ أليست هى التى ملأت على الدنيا بضجيجها وصخبها وانتشلتنى من الوحدة التى خلفتها أمى فى قلبى الحزين ؟

لقد كانت الى جانبى فى جهادى ، وكل جهادى فى التحرير والتحبير والتأليف ... صحيح أنها لم تكن تجيد القراءة أو تحسن الكتابة بيد أنها كانت نفسا دفاعا وشخصية طاغية قوية تلزم الناس احترامها وتوقيرها .

كانت أشبه بملكة لها الأمر وعلينا الطاعة ! ...

كانت تزهو بما أصنع ، وتفرح بالكتب التى أصدرها وان لم تقرأها ، وتمر على ما أنشىء من مطابع وصحف هنا وهناك فتنفخر بما ترى وتسمع وان لم تفهم شيئا فى هذه الشئون ....

كانت تعلم أن نجاح زوجها الذى يتحدثون عنه فى المجالس أو ينشرون عنه فى الصحف سيلد الذهب والفضة ، وهى قادرة على احالة هذه المعادن النفيسة الى أحذية وفساتين وعطور ! واذا بقيت منها فضلة فلكل منافقة من الأهل والصاحبات نصيب ! ...

وحين نزلت بى الشدة كنت غارقا فى الديون ، فحزمت أمرى وعزمت على أن أقتصد الدانق والسحتوت لتكون درعا فى الايام السود ، ولم أعد أصيخ السمع اليها وهى تحدثنى عن قرب

موتها ... ومنذ ذلك التاريخ تبدلت الملـكة الرقيقة الأنيقة الونيسة الى شيء آخر

ثم مضت عنى ، وفى عينى دمعة ، وعلى ذكراها خوص وريحان، وفى خاطرى أبدا دعاء لها بالرحمة والغفران ! ...

***

كنت سعيدا فى كلية الآداب بما قسم الله لى من حظ موفور ، وكدت أذهب عنها مرتين ، مرة سنة ١٩٤٣ حين فكر وزير صديق فى نقلى الى وزارة الشئون الاجتماعية ، وقد اعتذرت عن العرض فى ذلك الحين ، ولم يقدر الرجل عليها فى المرة الثانية سنة ١٩٥٠ لان الوظيفة التى عينها الى كانت وظيفة مدير المطبوعات والنشر ، وهى وظيفة حساسة تحتاج الى ايمان بالحاكم واعتقاد شديد فى رسالته ، ولم أكن هذا الرجل الذى يرضاه رجال حزبه ، فلست ذاهبا اليهم فى الرأى وان لم أختلف معهم فى النظر الى المعالى من الأمور ...

والحق ان الوزير الصديق كان رجلا واسع الافق فى سياسة الدولة ... كان أصدقاؤه ومعارفه من غير حزبه أكثر من أصدقائه ومعارفه الحزبيين ، ولو كان بيده لملأ الوظائف الكبيرة بكل خبير واستعان فى شئون الحكم بكل منتج ومفيد ..

وكنت فى محاضراتى أواجه بالمناقشات السياسـية ، وتدريس الصحافة وتاريخها وفنونها يفرض هذه المناقشات ، وكنت أعلم أن من بين تلاميـذى طلابا من كل مذهب ودين ، وكان البعض

يضايقه نقدى لسياسة الحكم من وزارة وبرلمان وتعقيبى باللائمة على بعض الوزراء وبعض النواب ، اذ فجعنى أن أجـد من بين أعضاء البرلمان صاحبا لى يقف وسط النواب ويدافع عن (الطافية) والطافية أحط أنواع الخمور والمسكرات !!

لم تكن تربطنى برجال السياسة روابط فيما خلا زملاء العمر الذين استغرقت حياتهم السياسة فكانت لهم أقرب ما تكون الى الحرف التى يعيش لها الناس

وقد زارنا فى كلية الآداب وزير الداخلية ابان الحرب العالمية الثانية ، وكنت الى قلبه قريبا ولى به صلة الصاحب والصديق ، وسألنى أن أسـأله شـيئا .. فقد كان الرجل اذ ذاك أقوى من هارون الرشيد ؟ وقلت : أريد ترخيصا بمجلة أصدرها وأمرن فيها تلاميذى ، فسألنى عن قدر الاعانة المطلوبة وكميات الورق التى أحتاج اليها ؟ وشكرته ثم قلت : لا أريد الا الترخيص .. فربت الرجل على كتفى فى فرحة الذى عثر على شىء فريد !..

نعم ، لقد كنت شـيئا فريدا ، اذ لم أظن أن وزارة الداخلية تنقد الصحف الاعانات ، ولا أعلم أن بعض الصحف تبيع ورقها فى السـوق السـوداء حتى اسـتطاع بعضهم أن يقتنى الدور والأطيان !

وكنت كلما قصصت على صاحب لى عرض الوزير وأجابتى على العرض قال : سـاذج وعبيط .. وثبت أنى كما يقولون ، لان

الترخيص بالمجلة صدر فورا ، ولم تصدر المجلة قط لأنها تحتاج الى اعانة الداخلية وورق التموين !..

لقد كانت الصحافة ، وكانت عضوية البرلمان ، تجـارة نافقة ابان الحرب العالمية الثانية ، تجارة امتهنها معظم رجال السياسة وجميع الأحـزاب ومعظم رجـال الصحافة ، وان لم تخل تلك الجبهات من النابهين الاشراف

وكنت فى ذلك الوقت أشرف على تحرير مجلة نسائية ، وهى المجلة النسائية الأولى التى عرفها الشرق العربى كاملة المعانى ، مستكملة كل أسباب النجاح ، وهى شىءعظيم فى تاريخ الصحافة المصرية ، وعلى صفحاتها برز كتاب كثيرون وفنانون يشار اليهم فى كل حين ، وكان من بين من تجلت ملكاتهم صديقى كمـال الملاخ الفنان الموهوب ، وكنت أرجو أن يمضى كما كان ، مفتنا بريشته لا كاتبا بقلم هادىء أو عنيف

لقد كانت المجلة منى فى مقام البنت أو الولد .. وقد فتحت لى صدرها فى الشدة والرخاء ، ومنذ احتجبت عن الصدور لم أفكر ــ الا مسوقا بسلطان الحاجة ــ فى انشاء مقال أو كتـاب أو حديث يذاع هنا أو هناك .

وكان مرض أم البنين يفل الحديد وكنت ذلك الحديد ..

لم أستطع وأنا معيد فى كلية الآداب أتقاضى ستة عشر جنيها ونصف الجنيه أن أعيش فى فيللا وأتنقل فى سيارة خاصة ، وقد

اضطررت يوم مرضت أم البنين الى أن أبيع السيارة وأنتقل الى شقة صغيرة فى عطفة من حارات حدائق القبة سماها أصدقائى (مفرش الحمص) حيث كان تجار الحمص يفرشونه فى ساحة أمام بيتنا الجديد ليجف قبل تعبئته ، وسميتها أنا (حوش بردق) وحوش بردق يطلق عادة على كل حى تسمع فيه الألفاظ النابية التى يندى لها الجبين ، ولا يتحرج سكانه من ارتكاب الهنات دون اعتبار لقاطن أو عابر طريق ؟!

وكنا فى مطالع الحرب الكبيرة الأخيرة ، وكان البيت الذى فيه شقتنا البيت الوحيد الذى يزار بسيارات خاصة ، هى سيارات بعض الصحب من الزائرين ، وكثيرا ما هششنا فتيات الحى عن سيارات الأصدقاء ، فقد كن يوصين المصور الجوال أن ينتظرهن عند أية سيارة تقف ببابنا ويركبن جوانبها وتؤخذ لهن الصور ، ليبرزنها عند اللزوم من باب المفاخرة أو التمويه عند من يردن مفاخرته أو التمويه عليه !!..

وفى (حوش بردق) حصلت على درجة الدكتوراه ، وفى حوش بردق كنا نتحدث فى السياسة ونتابع حياة بلادنا فى عمومياتها وتفاصيلها ، ولو علمت الحكومات التى ساست أمورنا بما كنا نتحدث فيه أو ندعو اليه لاعتقلتنا مدة الحرب كلها ، وكم مرة كنت لا أنام حتى أطمئن لعودة أصدقائى الى بيوتهم ، فقد كانوا شعلة من الحماس الدافق العنيف الداعى الى جهاد

الانجليز وفاروق بكل أسلوب يمكن اتبـاعه ولو كان أسلوبا أحمر كالدم ، فقد كانت مصر تعيش فى ذلة حقـا ، تبيح لكل مواطن واع مستقيم السيرة قوى العقيدة أن يبذل فى سـبيل انقاذها كل ما يملك من سلاح ..

كان (حوش بردق) صالونا عظيما يلتقى فيه خيرة شـباب الجيل ، محمود الشاهد ، صلاح ذهنى ، أبو بكر نور الدين ، عبد الفتاح عبد العظيم ، محمد خشبة ، هانى كامل ، نورالدين طراف ، فريد زعلوك ، توفيق الطويل ، صلاح الشاهد ، محمد فتحى ، عبدالقادر السـماحى ، ابراهيم رزقانه ، عبد الفتـاح زكى ، وغيرهم كثير ، وكانت زوجـات المتزوجين يصحبنهم ، وكنا نتحدث فى حـرية كأننـا لا نعيش فى مصر ، أو كأن مصر لا تعرف الظلام ، ولا أعنى الظلام الذى فرضـته السـلطات الحـربية ، بل أعنى الظـلام الذى كانت تعيش فيه نفـوس المصريين ..

وفى هذا الصالون نشأت زوجاتنا نشـأة طيبة ، اذ لم يعرف مجلسـنا الشراب ، ولم أر واحدة منهن تدخن سيجارة ، وقد استكملن ثقافتهن مما كن يسمعنه منا أو ينقلنه عنـا ، وكنـا نحسن الكلام ونحسن الرأى ، وقلما تفلت من أحدنا كلمة تنبو عن الذوق ، وانما نحن أسرة واحـدة كل ما يجرى فيها يشرف طابعها ويعلى من قدرها

وفى صالون (حوش بردق) تخرج هؤلاء الشبان ونزلوا فى ميادين الحياة التى هيأهم الله لها ، فكان منهم كبار الأطباء وخيار أساتذة الجامعة ، وأساطين السياسة ، وفحول العلم وأعلام الأدب ورجال الاقتصاد

هؤلاء هم صحبى .. أصدقاء الشدة والرخاء ، ومنهم من كان أقرب الى نفسى من نفسى بما آثرنى به من حب افتقدته عند بعض دمى ولحمى !..

وفى (حوش بردق) استردت أم البنين عافيتها ، وعادت الى روائها وبهائها ، وأفاء الله علينا من خيراته الشىء الكثير ، فصدرت لى ستة كتب بيعت بمئات الجنيهات والفضل فى ذلك يعود الى صديقى على حسن صاحب مكتبة الآداب ، فقد أخذ بيدى ووضع تحت تصرفى كل امكانياته ، فما كنت أفرغ من طبع كتاب الا وزحم مطبعته بكتاب لى جديد ، وعلى حسن أكبر من ناشر .. هو أديب ذواقه ، خدم العلم والأدب ، وفى رحابه صدرت كل كتب توفيق الحكيم وتيمور ، وان عشرين كتابا لى تسجل فضل الناشر الأديب والصديق الحبيب

ثم عملت محررا فى دار الهلال وكانت مكافأتى ثلاثين جنيها ، ورقيت فى الجامعة وأصبحت مدرسا يتقاضى خمسة وعشرين جنيها ، وصدرت المجلة النسائية ومجلة الكتكوت وكنت أتقاضى عن الاشراف عليهما ثمانين جنيها كل شهر ، وأقبلت على دور الاذاعة هنا وهناك

غمرني الرزق بغير حساب ..

لقد كافأني ربي لأني أحسنت أداء الواجب في علاج أم البنين ...

كان (حوش بردق) مفترق طريق .. كان الافتراض جزءا من حياتي فأصبح لي رصيد في البنوك ..

من لي بحوش بردق وأيامه الحلوة ؟

لقد عشتها رضي البال مستريح النفس في ابتسامة عريضة ، كأن الحياة سعادة مطلقة لا نعرف فيها الحزن والأسى أو الغش والخداع ..

وانتهت الحرب الكبيرة ، وبدأت مصر تدخل في حرب أكبر وأعنف مع فاروق والانجليز

ان الذين عاشوا أيام فاروق وأحسوا سلطان الانجليز ، هم وحدهم الذين يشعرون اليوم بالعزة من أعماقهم ، حيث لا فاروق ولا انجليز .

كانت مقدرات مصر شيئا هينا يعبث به الملك في سهولة ويسر ، وما كان يمكن لمواطن أن يعقب برأى على ما اتخذه فاروق من قرارات ، ومن أخطر القرارات التي أصدرها ذلك الملك ، حرب فلسطين دون استعداد أو تهيئة للنصر الأكيد .

ليست الحروب سلاحا فقط ، بل الحروب حالة نفسية قبل كل شيء ، وفي القرن الأخير انتصرت ألمانيا مرات وانهزمت

فرنسا مرات ، ذلك لأن الالمان كانوا مهيئين نفسيا للحرب ولم يكن الفرنسيون على هذا المستوى العالى من روح الكفاح

كان يجب أن يعرف شعبنا معنى الصهيونية وخطرها .. كان يجب أن تؤمن سائر الجبهات ، وخاصة سائر الأشقة فى عمان وبغداد ، قبل أن نمتشق الحسام ويستدعى الداعى البذل والفداء

ولن أنسى ما حييت موجة الأسى التى علت وجوه المصريين يوم أعلنت الهدنة بين العرب واسرائيل وانتشرت رايات الخزى والعار ..

أقسم ما رأيت صحبى حزانى لأمر حزنهم لهزيمة أربعين مليونا من العرب أمام طغمة من نفايات الأمم لايتجاوز عددها مليونا من الحرافيش !

ماكان يمكن للعرب أن يكسبوا جولتهم وهم فى نظم الحكم طرائق ، وفى علاقاتهم زيغ ، وفى أديانهم شيع وفى نظرتهم لجد الأمور بدائيون

لقد كانت حماستهم للوغى والنزال خطبا وأشعارا .. تماما كما كان العرب فى مطلع حياتهم وبكورة حضارتهم ، مع فارق كبير .. كان أولئك القدامى يشعرون وينثرون وبنودهم خفاقة وأعلامهم فى السماء !..

وكيف كان عدونا المسخ الضئيل فى سنة ١٩٤٨

وحدة متماسكة عبر الاراضى والجبال وحول كل بحر ومحيط ...

ونظامهم السياسى ؟ أسوة وقدوة ..

وجنديهم ؟ خبير ومتمرس ..

وحربهم ؟ فكرة وعقيدة ..

كل هذه الحقائق زورتها الصحف والاذاعات العربية ، زعمت أن الصهاينة عصابات متنافرة ، عبيد يساقون للحرب، وجنودهم سكارى حيارى ، وقادتهم قطاع طريق ؟! ..

كان المصريون يتشبثون بأرض المعركة ويعضون عليها بالنواجذ ، وكان أحلاف لهم يخلون الطريق للعدو ويدعون للسلام ؟..

السلام ؟! ومع من السلام ؟ مع صهاينة لا يرعون ذمة ولا يرضون الا حدودا لا تحدها قيود .....

لقد كانت طغمة الشواذ التى نزحت من أوروبا الى أمريكا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر تعقد فى كل يوم سلاما مع حمر الهنود ، وكانت الطغمة آلافا حين وطئت أقدامها أرض القارة الجديدة ، وكان حمر الهنود ملايين ، وبعد قرنين أصبحت الطغمة ملايين وأضحى الهنود الحمر بضعة آلاف

ان صهاينة فلسطين تلاميذ مجتهدون للرعيل الاول الذى حط فى أمريكا وقضى على أصلاء المواطنين !..

ألم تر كيف اشتروا أرض فلسطين من أصحاب فلسطين ؟ ثم استردوا أموالهم بغنج العذارى وعرض الغوانى ،

الراقصات ، سيان فى الوحل أو المعابد ، النافخات فى ضمير الشيطان أو فى مزامير داود ، الكاشفات كل محجوب ، الباذلات كل مرغوب ، البائعات الهوى للمحرومين من أصحاب الأرض فى فلسطين ؟! ..

كان ضعف آدم أول اسفين دقه اليهود فى سبيل اسرائيل .. وشعوب العرب ؟

لم تهزم شعوب العرب فى حرب فلسطين بل كانت الهزيمة من نصيب الحاكمين

حاربت الحكومات العربية اسرائيل يوم ولدت اسرائيل ، وليس لها قاعدة شعبية فى أى أرض خرجت منها جنودها وبنودها للقضاء على المولود الجديد !..

كانت فى مصر حكومة تستند الى تأييد شعبى صغير ..

كانت فى العراق حكومة ضائعة بين أحزاب من كل لون ودين وأعراب تائهين فى الصحراء عن شمال ويمين ..

وكانت فى الأردن حكومة هى بالاسم من العرب ، وفى حقيقتها صدى لأجنبى يعنيه أن تقوم دولة اسرائيل .. انهم الانجليز .. عز عليهم فى الحجرة مكان الصدر فتحسسوا أى جانب فيها .. على كرسى وثير أو على حشف الأرض .. الهدف أن يبقوا فى الحجرة ولو عند الباب .. وهكذا ضاقت بهم رحاب الشرق العربى الا فى الاردن حيث أقاموا حكومة صدى لهم فى كل احساس وتعبير ...

ثم كانت فى سورية حكومة حجبت شعبيتها ألوان من الغفلة وسوء التدبير ..

أما فى ربى لبنان فكان شعب ذكى مسالم سار فى الزفة وهو معنى بحراسة هوائه النقى وجباله الشـوامخ وفاكهته الطرية ونشاطه الدولى منقطع النظير ..

وهناك فى أقصى الجنوب كان النفط سيد الموقف ، ومن أجله سيست الأمور على نحو فريد !

أين كانت القاعدة الشعبية فى ذلك الحين ؟

كانت شعوب العـرب جميعا فى سجن كبير .. كان الحكم العرفى يسود البيد والحضر ، والأحرار بين شريد ومعتقل، ومن عجب أن يطول عهد الطغيان فى الوطن العربى فلا تخف له وطأة منذ عهد معاوية حتى قيام اسرائيل ؟ !

ما لنا وهذه الذكريات المؤذية ؟ . ان حاضرنا يحفزنا الى كل جميل وجليل ، فلا ينبغى أن نشغل أنفسنا بالماضى حتى لا نضيع المستقبل ..

***

لكل مجتمع صور وتقاليد وطرائق فى النظر للأشياء والأحياء، ولا بد من تطور المجتمع حتى تتطور الحياة ، ولا ينبغى أن يقف الناس عند الموروث حتى لا يحرم الخلف من ارث جديد

التجديد طبيعة كل شعب متحضر ، ويجب أن يحدث جديد فى كل مجتمع ، وحتى فى الدين يجب أن تتطور طقوسه على مر السنين ! ..

لقد كان الأفغانى ومحمد عبده وقاسم أمين وغيرهم من علامات الساعة على تطور الذوق والفهم والتمييز ، ولو لم يكن هؤلاء فى حياتنا لبقينا أهل نواص وأعتاب ، ولمضينا نؤمن بما أدخل على الدين من خرافات ، ولا زلنا نتعلق بمقابر الصالحين والأولياء ، نبكى عندها ونضرع لها ، وننتظر فى رحابها المثوبة والرجاء ؟ ! ..

لقد ضاق صاحب لنا بالطربوش فى سنة ١٩٣٢ فهدده الأستاذ العميد بالفصل من الكلية ان خلع الطربوش ! ثم مضت السنون فأرانى لا أجد على رأس طربوشا ، اذ خلعه الملايين من التلاميذ والعمال والموظفين ..

لقد كان الطربوش شيئا سخيفا وقديما وغير عملى ..

كان لا بد أن يخلع الطربوش واحد حتى يكون هناك انتقال وتغيير وان كانت قضية الطربوش من أصغر القضايا فى ملامح تطور جديد ..

لم أقم قط وزنا لكلام الناس ..

ان سلوكى فى الحياة وأسلوبى فى تناول هذه الحياة من حقى أنا ، وأنا وحدى الذى ألون الاطار الذى أعيش فيه ، ما دامت أدوات التلوين لا تؤذى أحدا من الناس

المجتمع صور وتقاليد ، وليس صورة واحدة أو تقليدا واحدا ، ونحن الذين نصنع هذا المجتمع ، وكل منا له طابعه

ومزاجه ، واذا لم تتبــاين فى الطبع والمزاج كان مجتمعا بليدا لا ذوق فيه ولا احساس ..

الناس فى حياتهم طرائق ، والمجتمع يختلف من شعب لشعب ومن مدينة لمدينة ومن حى لحى ..

تحية النساء والرجال فى باريس قبل وأحضان ، وكل يمارسها على هواه ، وفى غير تحرج أو حياء ، وتحميه الشرطة من عيون الناس ، وتبارك القوانين هذه التحية مهما يكن فيها من صنوف الأنس والائتناس ! ..

هــذه التحية فى مدينة القــاهرة فعل فاضح يقع تحت طائلة القانون ..

وهذه التحية فى قرانا عار لا تغسله الا الدماء ! ..

ثم ماذا ؟

اذا سرت فى حارات الحسين أو الســيدة زينب والى جوارك محرم زفك الكبار والصغار وألقوا عليك من العبارات مايؤذى سمعك ويدفع الدم الى وجهك .. واذا انتقلت بها الى جاردن سيتى أو الزمالك فلن يتعقبك انسان بقول ذميم أو قول كريم

الناس فى تذوق الحياة ألوان وفى تقاليدهم معادن ، والدنيــا تسير ولن يقفها كلام الناس ، ولن يحول بينها وبين جديد نراه ، سخف الطقوس وغباء المراسيم

لقد مارست حقى فى أن أعيش على النحو الذى أرضــاه ،

وسيان عندى زفنى الناس بكلمة شر أو قالوها طيبة أو حبسوها عن الخير والسوء ..

ندبت مديرا للمطبوعات ورقيبا للنشر عقب حريق القاهرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢

كنت أستاذا مساعدا للصحافة فى الجامعة ، وهذه وظيفة علمية تحتاج الى تطبيق عملى ، وادارة المطبوعات تراقب المسرحيات وأفلام السينما والاسطوانات وما الى ذلك من الفنون الرفيعة ذات الأثر البالغ فى حياة شعبنا وسائر شعوب الوطن العربى التى تسمع أغانينا وتشاهد أفلامنا

ورقابة النشر تعنى مراجعة ما ينشر فى الصحف والكتب والمجلات قبل طبعه وهو عمل غريب على معلم للصحافة ، غير أنه مران طيب على المواءمة بين المحظور والمنشور

وبروح الأستاذ الجامعى وضعت قواعد لمعالجة الصلة بين ادارة المطبوعات والصحف من ناحية ، وبينها وبين أصحاب الفنون التى ذكرتها من ناحية أخرى ، ورأيت ألا أستقل بالرأى أو انفرد بقرار .

دعوت نحو مائة فنان وفنانة من رجال المسرح والسينما لتناول الشاى فى بيتى ، لأناقش معهم القواعد التى سيصدر بها قرار وزارى ، وحضر الاجتماع أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب وجورج أبيض ويوسف وهبى وفريد الأطرش وكبار الممثلين

والممثلات وكبار المخرجين فى المسرح والسينما ، وتناقشنا فى اللائحة التى صدر بها قرار وزارى بعد أيام جاء طبقا لرغبات هذه الصفوة المرتجاة ، وسجلت الصحف والمجلات صورا للحفلة وما اتخذ فيها من قرار

ماذا قال المجتمع ؟

سخط بعض المسئولين فى الجامعة لأن أستاذا سمح لنفسه أن يختلط بالممثلين والممثلات ، وأن يظهر فى الصور معهم وأن يجلس بينهم ، وانها لهنة ما يجوز أن تفوت دون سؤال هذا الأستاذ عما ارتكب فى حق الجامعة وتقاليدها من اثم خطير وشر مستطير ؟ .! ..

أى والله .. حدث هذا فى سنة ١٩٥٢ وسجل فى أوراق رسمية لاتزال تحيا فى الأضابير

ليس هنا محل للدفاع عما ارتكبت من اثم وشر ! فالفن وأصحابه ظاهرة اجتماعية أعز من أن يجرحها غبى وأكبر من أن يمسها جهول ، والفن فى ذمة الجامعات ذات الأصالة شىء جدير بأن تكون له كراس ، وخليق بأن يكون له أساتذة ومعلمون ، وهو قديم فى الحضارة قدم الاولين من يونان وفراعين ، وان الحضارة منذ آلاف السنين تدين لفنون التمثيل وما دار فى فلكها من فنون

ألم أذكر أن المجتمع صور وتقاليد وأن الخضوع لسلطانها

بلا وعى أو تفكير تحقير للنفس أى تحقير ؟

وجدت فى ادارة المطبوعات عشرات من الافلام المعطلة بحجة أو أخرى ، فراقبتها بنفسى ، وأجزت عرضها على مسئوليتى ، وكان هناك فيلمان ، أحدهما مصرى والآخر ايطالى ، وكان عرضهما فى دور السينما مشكلة سياسية خطيرة فى تلك الايام ، وحذرنى الموظفون من خطورة الموافقة عليهما ..

وكان الفيلم الأول فى عهد خليفة من خلفاء بغداد ثار عليه الناس وحرقوا العاصمة ، وكنا لا نزال نعيش فى دخان حرائق القاهرة ..

وكان الفيلم الثانى يمثل فقر الشعب الايطالى واهمال حكوماته فى رفع مستواه ، وهنا قياس يعيش على مستواه شعبنا ، وعرض مثل هذا الفيلم دعوة صريحة للتبرم والضيق ، أو دفعة الى تفتيق الأذهان لتغضب وتثور

ونفضت نفسى من صدرى وناقشتها ، ماذا يضيرنى لو وافقت على عرض الفيلمين ؟ وماذا ألقى من عقاب اذا تم التنفيذ وترتبت عليه المتاعب ؟ قد يلغى ندبى وأعود الى الجامعة .. قد يحال بينى وبين ترقيتى الى كرسى الأستاذية .. وحدثتنى نفسى أنى لن أشنق على أى حال !

وأعدت نفسى الى صدرى ، وطلبت أنور وجدى صاحب الفيلم الأول ، وكان الرجل قد فزع الى من قبل معلنا خراب

بيته ان لم يعرض فيلمه ، فقد غامر فيه بكل ماله وصحته بعد أن وافقت المطبوعات على الموضوع والسيناريو ، وترك عنقه ــ على حد تعبيره ــ بين يدى مدير المطبوعات ، واتفقنا على عرضه فى دور السينما فى القاهرة والأقاليم فى وقت واحد ، وخلال فترة العيد ، حتى اذا تنبــه رجــال الملك وعيونه الى ما يعنيه الفيلم ورأوا مصادرته استحال عليهم الامر الى أن تنتهى اجازة العيد

وعرض الفيلم فى عدة دور سينمائية فى القاهرة ومعظم دور السينما فى الأقاليم فترة العيد وهى فترة مجزية ، يشــاهد فيها الناس الافلام بسخاء ، فلمــا عدت الى عملى بعد اجازة العيد صادرت الفيلم فى القــاهرة وتلكأت فى مصــادرته أياما حتى استنفذ غرضه فى الأقاليم ..

أما الفيلم الثانى ، فقد أجزت عرضه ثم ألغى ندبى ، وقدر له الظهور والعرض على الجمهور ، وكتب احسان عبدالقدوس فى ١٤ يوليــو ١٩٥٢ فى روزاليوسف يثنى على الفيــلم ويذكر بالخير من وافق على عرضه ..

والفيلم الوحيد الذى لم أوافق عليه كان يعالج بعض المشاكل الدينية التى كانت قائمة فى ذلك الوقت وغضب لذلك صاحبه، ومضى يهاجم عقليتى الضيقة وتفكيرى المحدود .

وبعد الغاء ندبى حاول صاحب الفيلم الافراج عنــه ، ودعا

فى عرض خاص كبيرا مسئولا وكانوا قد أفهموه أن عقلية رجعية هى التى حالت بين هذا الفيلم وبين ظهوره على الشاشة ، فلما بدأ العرض وقفه الكبير المسئول بعد دقائق وذكرنى بالخير وبارك ما صنعت ، وأنب مدير المطبوعات تأنيبا شديدا ، وقيل ان صاحب الفيلم أسقط فى يده ومرض شهورا

ثم أقمت حفلات أخرى للصحفيين المصريين ، وللأجانب من الصحفيين ورجال الاذاعة والتلفزيون ، وللملحقين الصحفيين ، وفى هذه الاجتماعات حلت عقد وسويت مشاكل ومضت الأمور على ما يرام

ثم هربت من رقابة النشر لتصرفات مسئول فى حكومة ذلك العهد ، فقد طلب منى أن أغلق صحيفة صباحية اغلاقا وأسدها سدا لأن الملك فاروقا ثائر فائر ومصر على هـذا الاجراء ، ثم مضت ساعة وقبل المسئول أن تغلق الصحيفة شهرا ، حتى اذا جاء المساء رضى أن يكون الاغلاق يوما

وفى الثالثة صباحا اتصل بى المسئول الكبير وطلب منى الغاء الالغاء والاتصال بأصحاب الصحيفة ليصدروها فى موعدها ، أى بعد ساعتين من حديث التليفون ! !

واحتجبت الصحيفة يوما لان اصدارها فى ساعتين ضرب من المستحيل ..

وغضب الرجل لأن الصحيفة التى كان يريد فى الصباح سحب

رخصتها والغائها الغاء غابت يوما عن الصدور !

وبعد أيام دعانى هذا المسئول الكبير الى مقابلته ، فوجدته متجهما وفى يده صحيفة أسبوعية له فيها صورة وتعليق

انها كاريكاتير يبرز ملامح الرجل ، فاذا هو وردة وطربوش !

ودافعت عن الصورة والتعليق وقلت انها ملحة لا تسىء الى أى مقام رفيع ، فما رأيته الا واقفا ينهى اللقاء بتحية باردة فيها السخط واضح ملموس !..

لم أكن أعرف كيف يقابل الوزراء وكبار المسئولين ، ويبدو أن لذلك قواعد وأصولا ، ويبدو أننى تجاوزت حدى فى تناول المسألة مع الكبير المسئول وأهملت القواعد والأصول ! بيد أن الذى ساءنى ، حديث الرجل وكأنه القدر لا يغلب ولا يهون ، فاذا هو بعد أيام فى بيته ، وغيره على كرسيه ، وعلى غـراره يدير الشئون !

على قصر الحاكم العام فى الكويت حكمة تقول : « لو دامت لغيرك ما وصلت اليك » ؟ !!

وما أكثر ماتحمل هذه الحكمة من معان تفوت الكثيرين ..

كانت الشهور الخمسة التىأمضيتها مديرا للمطبوعات شهورا عصيبة قاتلة للصحة والعافية ، فقد كنت أحاضر فى الجامعـة ، فوق مسئوليتى كرئيس لمعهد الصحافة ، وكنت أبقى فى مكتبى من أجل الصحف الى الفجر فترة من الزمان ، وكنت حين أريد

عرض أمر على الوزير أذهب اليه فى يوم الأحـد وأقابله فجر الاثنين . وكنت أراجع لى كتابا عن الصحافة الأوربية وأراقب طبعه ، ومع ذلك زاد وزنى وبدت صحتى على أحسن ماتكون ...

لقد رأيت فى المطبوعات والنشر سلطان الحكومة فى أوجه

جعلوا لى فى أول الأمر سيارة خاصة يقودها جنـدى مسلح ويجلس الى جانبه جندى مسلح . .

وكان أحد الجنديين يصحبنى فى مصعد الادارة بمسدسه عامر الطلقات ، ولم يكن أحد يخاف هـذا الجندى مثلما كنت أخافه أنا .. ماذا لو انطلقت رصاصة خطأ من جراب مسدسه واستقرت الى وسطى فى زحمة المرور أو زحمة الصعود ؟؟؟

ووقفوا الى باب العمارة التى أسكنها جنديا مسلحا يحيينى ذاهبا أو آيبا بدقة من حذائه ودقة على سلاحه ، وأعجب منظر الجندى صبية العمارة وفى مقدمتهم ولدى الصغير ، وقد عدت يوما واذا بخمسـة عشر طفلا من سكانها يحملون على أكتافهم عصيا ويقفون خلف الجندى ويستقبلوننى على طريقته بدقات من الأحذية ودقات على الصدور !..

وذهبت الى وكيل الوزارة أرجوه أن يعفينى من كل هـذه الشـعائر فأبى وذكر لى ان مقتضى الحـال يفرض على هـذا الحصار ..

وقد تخلصت بنفسى من هذا الحرج فأمرت الجندى المسلح

بباب العمـارة أن يختفى فى شقتى لا يظهر ولا يبين ، وبذلك تخلصت من استعراض الصبية الصغار الذين كان يقودهم ابنى فى غرور ما بعده غرور .

أما السيارة وجندياها المسلحان ، فقد مضت تروح وتجىء ولم تنفع فى صرفها تعلة أو اعتذار ، فقد كان أمرا للجنديين أن يصحبانى فى الليل وفى النهار ، وأن يكونا حيث أكون ..

انه شىء يثير فى النفس الزهو والكبرياء حين يحاط المرء بكل هذه الأعراض ، أعراض السلطان والتفخيم ، ولو علم المرء أنها مظاهر زائلة لخفت حدة الزهو والكبرياء ..

وقد علمت أنها من العرض .. فما شعرت بضيق حين فرغت من تلك الوظيفة ، بل لا أغالى ان زعمت صادقا أننى سعدت يوم أتيحت لى فرصة العودة الى الزملاء والتلاميذ

٧

فى شهر يونية ١٩٥٢ ألغى ندبى فى ادارة المطبوعات وعدت الى الجامعة والعمل فى المجلة النسائية ، وكنت من قبل مشرفا على تحريرها ، وكنت بحكم ذلك أراجع كل رسالة ، وأحول دون نشر كثير مما كانت تتلقاه المجلة من رسائل تكشف عن حياتنا الاجتماعية والخلقية ، وتبسط مافيها من أعاجيب ..

وحبست عن النشر رسالة طويلة كأنها كتاب قصير ، ذلك أنها رسالة تلميذة فى الجامعة خفق قلبها بحب أستاذها ، وتريد من المجلة أن تبصرها بالرأى المفيد وتمدها بالتوجيه الصحيح! وحال دون نشر الرسالة عاملان ، الأول مادى وهو طول الرسالة ، والثانى خاص بما انطوت عليه من أسرار الحياة فى الجامعة ، وما كنت أريد أن أكشف المستور ، والجامعيون فى ذلك الوقت يؤذيهم ناعم القول ويجرح بشرتهم النسيم

وبقيت الرسالة عندى عشرة أعوام حتى رأيت أن يكون لى فى الناس كتاب ، وقد وضعت صاحبة الرسالة أساتذتها وزملاءها وزميلاتها فى أماكنهم بين معادن الناس ..

ذكرت صاحبة الرسالة أنه لم يكن يشغل بالها أحد ، فقد كانت قادرة على واجباتها فى البيت والكلية ، ولم يكن لها بعد زوج أو صديق ، وكانت حين تريد الترفيه عن نفسها تذهب الى بيت أستاذها وتلاعب أطفاله وتسمر مع زوجه ، ثم تنظر اليه

وتحبس خفقات قلبها حتى لا يسمعها أحد . وكان هو يتحفظ معها حتى ولو خلا الصالون من زوجته وأولاده ..

« تمنيت لو أنى زوجته أجلس اليه ليملى على كتبه ومقالاته كما أجلس عادة فى قاعة المحاضرات وأسجل كل شىء يقوله حتى نكاته !

« لقد كنت أتمنى أن أقف الى جواره فى الميادين الكثيرة التى يملأ فراغها وأقاسمه هذا النشاط الذى لو وزع على خمسة أساتذة لكان جديرا بابرازهم فى ميادين العلم والمجتمع

« لقد كانت زياراتي لبيت أستاذى متعة مابعدها متعة ، وحين خطبت أحب خطيبى أستاذى وكان يعجب به ويرتاح اليه ، وكان هذا عاملا جديدا شجعنى على هذا الحب الكبير ، وليته ما أحبه! فان حب خطيبى له كشف عن أشياء فى أستاذى افتقدتها فى كثير من الرجال ..

« كانت أياما حلوة انتصرت فيها على نفسى انتصارا أثر انتصار وشعرت بحلاوة النصر ، فقد كنت معرضة فى السنة الاولى من حياتى الجامعية لملاحقة بعض الاساتذة والطلبة ، وفيهم من يغرى بالمودة ، وفيهم من يغرى بأكثر من المودة ! وكان أستاذى هو وحده الذى حمانى من كل سوء ، فقد كان عطفه على وبره بى ونصحه لى يملأ قلبى طمأنينة وأنا حيرى فى هذا التيه العجيب

« كان حديثه معى لا يخلو من مجاملة عابرة أو ملاحظة تسر

خاطرى حتى ظننت أحيانا أنه يحبنى وأن واجبه يستر هذا الحب الأصيل ...

« وكانت ندوة أستاذى ندوة علم ورأى لا يختلف اليها الا خيرة الشباب ، وكان هو أيضا شابا لا يبدو عليه عمره وان عربد الشيب فى رأسه حتى ليحتار الناس فى سنه ، فهو معظم الوقت أصغر من سنه ، وكان يكبر — فى نظرى — اذا همه هم أو شغل باله شاغل ، وكان يراوغ كلما سئل عن عمره فيقول : ان العمر فى قلوبنا ... وعلى قدر ماتعمر به من خير ، وماتنبض به من حب تقاس أعمارنا !

ان الانسان الذى خلا قلبه من الخير والحب لا عمر له ... انه يموت يوم يولد ؟ ! ..

وعلى أى حال فما كانت تعنينى سنه ، فانه قائم فى نفسى ولو بلغ التسعين ! ولو كنت زوجه لفهمت قدره وبسطت له من نفسى كل مافى نفسى من أنس وبهجة وولاء ، ولوقفت الى جواره أتغنى نصره وأقاسمه بعض مالقيه من المآسى والآلام »

وتدافع صاحبة الرسالة عن عواطفها بأن هذا الحب لم يتجاوز حدوده المشروعة ، وتتساءل : أليس الحب حقا للانسان فى كل عقيدة وكتاب ؟ ثم تقول « وهل يضير أحدا أن أكون صديقة أستاذى ؟ لقد كان فى الجامعة أول تاريخها صديقات لاساتذتهن ، وقفن الى جوارهم فى السراء والضراء ... ان واحدة منهن كانت

تقتسم مع أستاذها راتبها حين عصفت به الاقدار مع أنها زوج وأم أطفال !

« كنت أريده لى وحدى ، وكنت أعجب لامره ، كيف لم يلفته جمالى أو تشغله مفاتنى مع أننى أتحت له من الوقت والفرص أكثر مما أتحت لغيره من الأساتذة ليتبين محاسن قدى وطبعى ، وكشفت له كثيرا مما تحول قاعات الدرس عن كشفه ؟ !

« لعلنى لم أحبه لانه أستاذ كفء وأديب ، ولعل هناك أسبابا أخرى حببتنى فيه ، ليس منها على أى حال شيء مادى يغرى عادة النساء ، فأستاذى رجل مرتب الهندام وان كان يبدو فى أضيق حدود الاناقة ، وجهه مقبول وجذاب ساعة المرح ، غير أنه بغيض ساعة الغضب ، انه دون المتوسط فى أكثر الرجال الذين عرفتهم ، ولاشك أن فيه شيئا أو أشياء تجاوبت مع نفسى ... انه عنيد ، لا يخاف ولا يتردد ولا يتملق ، ساخر ، واثق من نفسه ، معتد بتاريخه ، متفائل أبدا ، قادر على العمل والجهاد فى أى مكان ، متلاف لا يبقى على شيء اذا فرغ من ديونه ، وأنا أيضا عنيدة متلافة ، لا أخاف وان فاتنى سائر ماله من صفات

« له قلب كبير ، صلد أمام الحادثات ، ناعم لاحزان الناس ومآسيهم ، دفاع للنصر والمجد ، خفاق اذا أحب ، لا يبصر اذا كره ، وفى هذا القلب غمس أستاذى قلمه مرات ومرات ، فكان ماصدر عنه نورا أحيانا ونارا فى بعض الأحايين ... ولاستاذى

لسان اذا أطلقه فى خصم دهاه ، وليس يعنى هذا أن أستاذى شرير ، فان الكلمة الحلوة تمسح من قلبه الطيب كل سوءات الاعداء والخصوم

« لقد كان أصدقاؤه يسخرون من هذا القلب الصافى ، ويأخذون عليه اللين ، حين يلين له الخصوم .. فيقول : ما ينبغى أن نضعف والحق الى جانبنا ، وليس من شرف النفس أن نقوى حين يترضانا من أساء الينا

« وأستاذى على النقيض من زملائه ، يضحك ويسمر وينكت مع تلاميذه ، ولا يلزم هذا التحفظ المصطنع الذى نعرفه عن الكثيرين من أساتذة الجامعة الذين ينقصهم العلم والاخلاق والفضائل الأولى التى لا تفتقد حتى فى عامة الناس ! ...

« وكل وظيفة شغلها أستاذى كان فيها محسودا ، وكل عمل قام به نشط له الخصوم فى كل مكان ، واذا خيل الينا أن حساده هزموه ، رأيناه يطب للواقعة فاذا هزيمته أدنى الى النصر ، واذا هو لا يزال فى الصدر ، واذا خصومه سحال تسف التراب الذى يدب عليه !

« وفى أستاذى كبرياء نادرة ، فكم ضيع من فرص حتى لا يخفض أنفه أو يحبس عنه الهواء الذى يرضاه ؟ وكم أعجبنى حين قال ساعة ضيق : ان الرجل اذا تساهل فى سمت أنفه مرة عاش بقية عمره بلا أنف ! !

« ربما حببني فيه كل هذا أو بعض هذا ، وبالرغم من أن ظروفى تغيرت ورأيت من الرجال أشكالا وألوانا ، ولبعضهم فى قلبى مكان معلوم ، فان أستاذى لايزال يحتل مكانته الأولى فى هذا القلب منذ عرفته صديقتى وكان لها فيه نصيب »

ثم تجيء فى الرسالة بيانات أخرى فارغة لا تستحق النشر ، ولا تعيننا على تصوير الحياة الجامعية على النحو الذى تضمنته الرسالة فى فقرات أخرى من وقائع ومفارقات ، غير أنها تعود فتقول :

« ذهبت الى الكلية لأول مرة بصحبة أستاذى وفى قلبى ذخيرة من الامانى والاحلام ، وفى نفسى رهبة ورغبة ، وفى عقيدتى ايمان بالجامعة ليس له حدود

« حببنى زوج صديقتى فى (قبة الخالدين) واستعادخاطرى وأنا فى صحبته كل ماكنت أسمعه منه عن أصالة الجامعات فى دنيا الأمم والشعوب ، وخيل الى أن كل جديد مرجعه اليها ، وأنها الاتون الذى تصهر فيه جميع المذاهب والافكار ، وتصاغ فيه العقليات جيلا بعد جيل ، وأن الجامعة ، والجامعة وحدها ، هى التى زلزلت دعائم كل قديم ، وأرست قواعد المجد لبلادنا فى كل علم وفن ، وان الرأى الحر هناك ، ومن هناك انسابت حرية الرأى الى ضمائر الناس وتغلغلت فى نفوس الافراد والجماعات

وتطلعت الى أستاذى وهو يقود سيارته ، وسرنى أنى بصحبة واحد من الذين يشكلون المذاهب والآراء ، وهزنى الطرب بأنى سأسعد تحت القبة بعلماء يصنعون التاريخ ، آخذ عنهم وأستمع اليهم سنوات وسنوات !

« وبدت قبة الخالدين من بعيد وحولها السور ...

« وسألته عن القبة والسور ؟

« وأجاب أستاذى وابتسامته الساخرة تملأ شفتيه .. ان أقبح ما يطالعنى هذا السور ...

« فقلت أتملقه وأرضيه ... انه سور الخالدين !

« قال وكأنه يحاضرنى : ان الخلود لايجوز أن يحاط بسور.. ان الجامعات الحرة لا تحيا فى قلب سور ... انهم يسخرون منا حين يعزلوننا عن الناس ويدعون أن السور سما بالجامعة وجعل لها قداسة وحرمة !...

« اعلمى يا صغيرتى أنه لا حرمة لجامعة فى شعب لا قداسة له ولا حرمة ... ان الجامعة بسورها الغليظ سجن نظيف ! انه كسور الصين ، ولن تنطلق الصين حتى يهدم سورها ولا يعود له فى تاريخها تاريخ !...

« وبهذه الروح الثائرة رأيت الجامعة فى أول يوم ، فآمنت بأنهم لا يتحرجون ولا يخافون ...

« حتى جامعتهم لا تعجبهم وهى قبلة الدنيا اذا تحدث العرب أو تطلع المسلمون ...

« وكنت أستعجل اللحظات - بالرغم من حديث أستاذى - لأدخل السور وأسلك نفسى بين الالوف التى هرعت الى أحضانه وفى ضميرها ما فى ضميرى من ايمان بقبة الخالدين

« ودخلت بناء ضخما فى صحبة أستاذى ، واختلفت معه الى حجرة هى مرجع الصغير والكبير ، وقدمنى للعميد ، وكان رجلا دقيقا أنيقا حازم النظرات حاسم اللفتات ، وتبينت من لقاء أستاذى بالعميد أنهما صديقان وفى كل من الآخر هوى وريح ، وارتاح صدرى أن أرى أول ما أرى صنوا لزوج صديقتى ، وان كان العزم فى العميد عارما ، والبت فى مختلف الشئون بين يديه لا يحتاج الى مراجعة أو تأجيل ، وكان - فيما علمت بعد - أكثر أساتذة الكلية علما وأبعدهم صيتا وأقدرهم على حل العقد وتسوية الامور

« لعله الثانى فى كليتى الذى أصغت اليه نفسى وان لم يذهب اليه قلبى كما ذهب الى أستاذى الحبيب !

« ولا أزعم أنى كنت قادرة على الدرس قدرة زميلاتى ، فقد كن يذهبن الى الجامعة متحررات من المسئوليات التى ناء بها كاهلى ، انهن صغيرات يتفتحن للحياة ويطرقن أبوابها فى ثقة واطمئنان ، أما أنا فقد كنت فتاة تخلفت فى البيت سنوات وانقطعت صلتها بالعلم ، وعولجت أنوثتها على نحو يغرى بها عقلاء الرجال ، فتمكنت من شئون البيت ، واستقام مرانى على التجمل فى رسم

وجهى وضبط قدى ، وزادونى فهما بآداب المجتمع ، فما أثر عنى لفظ ناب أو مبتذل ، ولا خلت جعبتى من العبارات الدقيقة الرقيقة كلما لقينى قريب أو غريب

« لقد اقتنعت أمى آخر الامر برأى أستاذى زوج صديقتى ، وفتحت لى أبواب الجهاد من جديد لأنال من دراستى الجامعيـــة ما أصبو اليه من علم ، ومن حرية أيضا ، وما أضنانى شىء قبل التحاقى بالجامعة مثلما أضنتنى القيود الثقيلة التى فرضهـــا على البيت الكريه » .

ورسمت صاحبة الرسالة صورة ممتعة لمحاضرات يومها الاول فى الجامعة بعد السنوات الاربع التى قضتها فى البيت وراحت من عمرها هباء ، فحفظ لها جسمها الصـــغير وخطوها الرشيق ، وملامحها الفاتنة ، ونظرتها الصاحية النائمة ، حفظ لها كل هذا طابع الاخريات من الزميلات ، وأشاع فيهـــا دلال الصغيرات ، وملأها ثقة ما بعدها ثقة

ثم تقول :

« دخلت قاعة المحاضرات أول مرة ، فأحسست خوفا وغبطة ، وسرحت ببصرى فى زميـــلاتى ، وفى الارض والسقف ، وألقيت نظرة على مقاعد الدرس ، وراقنى هذا الأنس الذى غلب على الفتية والفتيات ، فطابت نفسى الى ما حولى ، واستقبلت مطلع يومى بأحلى ما تستقبل به أنثى يومها

« ثم أشرق الاستاذ فى قاعة المحاضرات فخيل الى أنه ملاك أو نصف اله ! وأنصت اليه بكل نفسى ، بيد أننى فجعت فى المحاضرة والمحاضر ، اذ كان يلقى علمه مترجما منقولا عاطلا عن الملاحة والابتكار من كراسة وضعها أمامه ، ولم يرفع عنها عينه ، وكان صوته رتيبا ثقيلا يوقر السمع كصوت الشيخ عبد الصمد مدرس الدين فى مدرستى الابتدائية ، وكان الاستاذ دون الشيخ عبد الصمد فى النطق الصحيح اذ كبا فى النحو مرات ومرات ، وجرت فى لسانه لكنة ليس مرجعها السنوات التى قضاها تلميذا فى جامعات أوربا ابان الحرب الاخيرة ، بل أصلها العجز فى الالقاء ان تاهت عينه فى سطر من كراسته

« وكان شعر الاستاذ أشعث أغبر سرح فيه الشيب ، ولو أحسن فى درسه لبدت فوضى شعره من مخايل العلماء ! . .

« وكان الأستاذ كثير الاشارات يستعين بها حتى لا ننام ... ولم أر عينه فقد أخفاهما وراء نظارة سميكة داكنة ، وهو قصير قمىء لا يوحى بثقة ولا يغرى بوصال ...

« لقد فزعت الى بيت أستاذى بعد المحاضرة وتناولت غدائى معهم ، ونصحتنى صديقتى ألا أعقب أمامه بكلمة سوء عن زميله المحاضر ، فهو صديقه وصفيه ، ثم قالت : ان ايثاره لهذا الاستاذ بلاهة وغفلة ، فهو يحسده حتى على الشر الذى يحيق به ويغار منه غيرة تأكل قلبه وتحرق كل خير فيه

« وما عرفت حصافة صديقتى وعمق نظرتها للاشياء الا حين تأزمت أمور أستاذى فى الجامعة ، وهم الاستاذ الاغبر الاشعث بين من هموا ليغتال صفيه بليل ، واهتزت قوائم الجامعة فى نفسى اذ ذاك ، وخاصة حين تبينت أنها تضم فى أعطافها من يحل الغيلة ويسير بالنميمة ويأتمر فى الظلام ! ...

« لولا الاستاذ الاغبر الاشعث ما انحرف ظنى فى الجامعة ولا خاب رأيى فى قبة الخالدين ، فقد هوت سيرته بعقيدتى فى أهل العلم صناع التاريخ ...

« لم أعد أومن بالقباب الضخمة العاليات ، فان فى قلبها فراغا هائلا وليس فى أحضانها شيوخ كبار أو صغار ! »

وتحدثنا صاحبة الرسالة عن خطيبها والدور الذى لعبه أستاذها وزوجه فى اتمام هـــذه الخطبة ، وهنا يبدو أن نوعا من القرابة يربطهـــا بزوج الاستاذ ، وتمضى واصفة حياتهـــا الجديدة منذ عقدت هذه الخطبة ، وهى قريبة الشبه جدا بحياتهـــا من قبل ، فانها تذهب الى الجامعـــة وتعود فتقضى وجه النهار وزلفـــا من الليل مع خطيبها فى ندوة أستاذها أو فى صحبة أسرته فى زيارة أو سينما ، لا يشغلها هم ولا يهمها شاغل ، وما الذى يقلق بالها وخطيبها يرى فى أستاذها ما تراه ، ولا ينصرف خاطره الى ما يضطرم به قلبها نحو هذا الاستاذ ؟ فهى ــ بالرغم مما تراه فى نفسهـــا من مفاتن ــ دون زوجه فى جمالهـــا الاخاذ وشخصيتهـــا القوية

ومنطقها العنيف النادر وذكائها الطائر فوق مستوى الناس !

وتنفض لنا نفسها حين تزعم أنها موزعة النفس مشطورة القلب بين خطيبها وبين أستاذها وبين الجامعة ، وتخشى أن يستبد بها خطيبها اذا تم العقد ، فذلك — فى رأيها — طبع العرب مهما يتحضروا ، وسجيتهم مهما يتعلموا ويتثقفوا ، وان أستاذها نفسه بالرغم من رأسه المتحرر فى طرائق النظر الى الامور ، ونهجه الغربى فى حياته الخاصة والعامة لا يخلو أحيانا من عواطف الغيرة والاستبداد فى شئون زوجه

وقد بدأت تشعر بالضيق وتبدو لها حياتها سجنا كبيرا يصعب على الصدر أن يتنفس فيه ، فان خطيبها يصحبها معظم الايام الى الكلية ، ثم يودعها الى عمله ثم يلقاها بعد المحاضرات ويشاركها الطريق حتى يبلغا بيتهما ، وكثيرا ما أزعجتها رعايته فبقى معها حتى الاصيل أو حتى تذهب الى بيت أستاذها ...

ولم تشعر قط بالحرية ، الا داخل السور ، فهم يضحكون ويسمرون بلا تحفظ ولا يملك أن ينفرد طالب أو طالبة بنفسه ، فكل منهم له أنيس أو جليس أو رفيق ، ثم تقول « وبدوت أنضج الفتيات وأقدرهن على اصطناع الحياء اذا وجب الحياء ، وكشف المفاتن اذا دعت الحاجة الى ذلك ، وقد شغلت بابتسامتى الساخرة وصدرى الناهد وعينى الساحرتين أكثر من طالب وأستاذ » !...

وتزعم صاحبة الرسالة أنها ترفعت عما يقترفه بعض زميلاتها من هنات ، فقد كانت بطبعها لاتحب الكلمة النابية ولا النكتة الخارجة ، وكان هذا أمرا غريبا من فتاة ينصت بعض زميلاتها — وان كن قلة نادرة — الى العبارات النابية والحكايات الخارجة ، وحتى فى ساعة الدرس وحماس المحاضرة لم تفرغ جعبة طالب وأحيانا أستاذ من عبارة مستعارة أو استعارة معبرة تقفز لها الدماء الى وجهها ووجه أكثر التلميذات ، وقلما يحمر لها وجه أستاذ وما ضاق بها قط تلميذ !...

ثم عادت صاحبة الرسالة الى الحديث عن أستاذها وفى قلبها لغط كثير ! وطلبت الى المجلة أن تهديها سواء السبيل

وفات أوان النصح ، ولا أدرى لصاحبة الرسالة من مصير ..

***

كانت الجامعة تأذن لنا بالدراسة والبحث خارج مصر فترات متقطعة ، ولم تبخل علينا بالاستزادة من العلم فى أوربا وأمريكا ، وكنت سعيد الحظ فى هذه الناحية اذ كانت دراسة الصحافة فى بلادنا شيئا جديدا ، لذلك رحبت الجامعة بسفرى فى بعثات علمية وعملية كلما جاءت دعوة من هنا أو هناك

وقد رتبت لى هيئة اليونسكو جولة لدراسة الصحافة وحقولها المختلفة فى باريس وليل ولندن وجنيف وبرن وروما وميلانو ، وأمضيت ستة أشهر متنقلا فى تلك البلاد ، وليس هنا مجال الحديث عما رأيت أو شهدت فقد سجلت ذلك كله فى كتاب

وفى لندن التقيت بصديق العمر حسن محمود ، وكان يعمل اذ ذاك ملحقا جويا ، وهناك علمت أن معركة رائعة مروعة تدور بين السفير والملحق الجوى ، وقد كان كلاهما طرفى نقيض ، كان حسن محمود مواطنا يعرف قدر وطنه ، وكان أستاذا لمدرسة من خيرة الطيارين ، وكان السفير خفيف العقل ، قليل التقدير لواجبات السفير

قرر السفير أن يكون للسفارة مكتب للصحافة ، وصادفت زيارتى يوما تقرر فيه افتتاح المكتب على نحو بهيج ، وقد دعا السفير الى الافتتاح كل مصرى يزور البلاد ، وأغفلنى وأنا أحق الزائرين بهذا اليوم المشهود ! ...

كنت أستاذ الصحافة فى معهد الصحافة ، وفى مهمة علمية للصحافة ، ومكلفا من الجامعة واليونسكو بتسجيل كل جديد أراه أو أحسه عن الصحافة !...

قالت عيون السفير للسفير انى صديق حسن محمود ! . . .

كانت سفاراتنا منحا للسفراء ، ولم تك قط أرضا للمصريين ...

ثم دعتنى بعد ذلك مؤسسة روكفلر لزيارة الولايات المتحدة ودراسة صحافتها ومطابعها واذاعاتها ودور النشر فيها ، وهيأت لى أسباب التوفيق فيما ندبتنى له من زيارات

لم يأخذنى شىء فى طابع الحياة الأمريكية ، فقد عرفت عنها الكثير مما قرأت فى الصحف والكتب أو شاهدته فى الافلام علمية

وعادية ، وأميز ماواجهني في حياة الجماعة ، العجلة في كل شيء ! كأن القوم جميعا على ميعاد هام وخطير ، ان فاتهم فاتتهم الدنيا بما فيها من خيرات ! ! . .

وابان هذه الزيارة المنتجة المفيدة قامت ثورة ٢٣ يوليــو في القاهرة ورأيت ترحيبا بها في جميع الاوساط التي اختلفت اليها ، وهذا شيء طبعي من شعب لا يعرف الملكية ، وهو في الوقت نفسه يشاهد عن كثب تصرفات أم الملك فاروق وهي تصرفات لا تليق بملكة أو أم ، فضلا عما كانت تنشره صحافتهم قبل ثورتنا من أعمال بعض حكوماتنا المعيبة ..

وفي مدينة لويزفيل أقيمت الى مأدبة،أقامها الصحفيون وأساتذة الصحافة ورجال الاذاعة والتلفزيون ، وقد أضفت الثورة التي قامت في القاهرة أهميــة على وجودي ، فأنا مصري من تلك البلاد التي تحررت بالأمس ، وأنا واحد ممن يباركون الثورة بحكم الوظيفة التي أشغلها

نعم ، ليس هناك أستاذ في الجامعة يأبى أن يبارك ثورة تحد من جشع الرأسمالية وتسعى الى تقريب الطبقات وتقضي على نوازع الشر التي يخلفها عادة الاقطاع

واذن فثورة القاهرة صدى لما في نفسي ، وشيء يرضاه عقلي ويسعد به حسي ، لذلك احتفل القوم بي ، فبينهم رجل ان لم يكن عارفا ببواطن الأمور فهو على الاقل صورة لما يجري في مصر

من أمور . . .

وقد ضمت المأدبة خمسين شخصية من شخصيات المدينة ، معظمهم من الصحفيين وأساتذة الجامعات ، وما كنت أظن أن يشتريني أصحاب المأدبة بمأدبتهم تلك ! فقد استغرق الغداء أربع ساعات ، دارت فيها مناقشات دقيقة حول الثورة وفاروق والصلح مع اسرائيل ! ...

وقد استطعت أن أجيب على كل سؤال وجه الى ، وكانت معظم الأسئلة عن اسرائيل ، وهى أسئلة سمجة فيها من القحة الشيء الكثير ، وقد وجهها الى جميع الجالسين الا واحدا صامتا صمت القبور ، وعجبت لما أرى وأسمع حتى خيل الى أنى لست فى لويزفيل بل فى اسرائيل ! . .

وغاضت دهشتى حين علمت فيما بعد أن الداعين الخمسين بينهم واحد فقط غير يهودى ، هو ذلك الصامت صمت القبور؟!..

وعدت الى القاهرة بعد زيارة مجموعة من أمهات المدن فى أمريكا ، اختلفت فيها الى دور الصحف والنشر والمطابع والاذاعة، عدت وفى جعبتى الكثير مما يفيد تلاميذى حين أدرس لهم ماشاهدت ، ومواطنى حين أنشر عليهم مارأيت ، غير أن المقادير لم تواتنى لأحقق الامنيتين أو احداهما ، فقد كان المكتوب لى فى لوح القدر شيئا آخر

كنت فى تلك الاثناء أحب مهنة الاستاذية حبا ملك على نفسى

وقلبى وضميرى جميعا ، وكان معهد الصحافة عندى شيئا عزيزا جدا ، زملائى وتلاميذى ... دراســاته الممتعة .. وما يدور فيــه من آراء وأفــكار ... كل ذلك كان شــيئا عــزيزا ، وكان شيئا جديدا أيضا فى كلية الآداب

كان معهد الصحافة شيئا متحركا ، ندب للتدريس فيه نخبة من أهل الفن ، زكى عبد القادر ، نجيب كنعان ، السيد أبو النجا ، محمد رفعت ، ابراهيم المــازنى ، وغيرهم كثير ، وقد جاءوا بأفكارهم وتجاربهم ، فخلقوا جديدا وأذاعوا طريفا ، وجعلوا فى معهد الصحافة حياة وحيوية

كنت أرتب لتلاميذى دراسات عمليــة فى الصــحف ، ومن تلاميذى الذين أفخر بجهادهم ونشاطهم ، الدكتور نجيب أبو الليل وهو عندى أكبر من تلميذ وأدنى الى القلب من صديق وحبيب ، والدكتور خليل صابات وتربطنى به مودة الأستاذ ومحبة التلميذ وايثار الصديق للصديق ، وكمال عبد الحميد ، ومحمود الجوهرى وغيرهم عشرات تضيق الصفحات عن ذكرهم ، ويؤذينى ، أن أنسى سائر المئات من الاسماء التى كان لى فى تنشئتها نصيب ، فالاسماء التى حضرتنى هنا أبقى أصحابهــا على مفهوم ما بين الأستاذ والتلميذ ، فما روعتهم نازلة أو غاشية ، ولا جروا — فى الشدة — من الفريز لافريز ؟!!

ألم أزعم أن الناس معادن ؟ ...

وكنت أقيم بين آن وآخر فى بيتى حفلات لتلاميذى وزملائى

حتى ارتبط بينهم بما توحى الروح الجامعية من رباط ، وكنت أتأسى فى ذلك ما رأيتــه فى باريس وأنا أزور بعض أساتذتهــا زيارات طويلة أو قصيرة ، وكانت أم البنين تعرف رسالتها فى ذلك الوقت كزوجة أستاذ ، وقد ترك صالون (حوش بردق) أثرا طيبا فى آرائها وأفكارها ، فكانت تملأ الفراغ بلماحتها وذكائها حتى كان بعض الأساتذة الاجانب يظنها جامعية اخترتها من بين الاخريات !

لم يكن يدخل بيتنا الى ذلك الحين الا زملاء العمر وقــد جاءت أسماؤهم فى غير موضع ثم بعض زملائى الاساتذة وزوجاتهم وهم أقرب الى المعارف منهم الى الاصدقاء ، ولم نكن نعرف من الجيرة فى العمارة التى نسكنها الا القليلين ، فأنا بطبعى شــديد التحفظ فى التعرف على صديق جديد ، وصحبة الجيرة كالزجاج الهش لا تقوى على أى ريح !

الجيران فى أحسن الظروف معارف ، ويندر أن تقوم بينهم صحبة ، انهم كأصحاب البطاقات ، لا يذكرونك الا فى المواســم والاعياد ، ويقبلون عليك طالما تضحك لك الدنيا وترقص الأقدار ، فان ولت وعبست تحاشوك فى المصاعد وعلى الدرج ، وأغلقــوا أبوابهم مسرعين حتى لا يكلفهم النظر اليك تحية من قريب أو بعيد !

ما تلقيت من صديق بطاقة فى عيد ، فالاصدقاء يلتقون عادة

فى الاعياد ، وقد حمل البريد الى نحو مائة بطاقة فى كل عيد وان تضاعف الرقم حين أقبل العيد وأنا مـدير للنشر والمطبوعات ، وأخـذت بطاقات المعايدة تقل رويدا ثم حثيثا حتى بلغت بطـاقة واحدة فى آخر الأعياد !

كنت أرى فى بطاقات المعايدة لونا من ألوان النفاق الاجتماعى، وكانت ضريبة ثقيلة على نفسى أن أجلس فأكتب العبارات التقليدية فى الرد على هذه البطاقات ، فلما أصبحت بطـاقة يتيمة رفعت صاحبها فى نفسى الى مقام الاصدقاء !

* * *

كان خالى دائما ينصحنى أن أقتصد القرش الأبيض لينفعنى فى اليوم الاسود ، وزعمت له ساخرا أننى أملك الملايين !.. وأننى أسر له بهذا النبأ وأرجو ألا يعلمه انسان ؟ ! !

وسخر خالى من خرافة الملايين ؟

فسألته : هل يأخذ أصحاب الملايين حياتهم بأكثر مما آخذ به حياتى ؟ ... وفهم الرجل ما أعنيه ...

قلت : يا خال . ان المال ان كان غاية أفسد من طبيعة الانسان، انه يعلم الجشع وخسة النفس وخيانة الامانة ... ان كل مفاسد الارض وليدة الرغبة المسعورة فى الحصول على المال ، مع أن المال فى غايته وسيلة لبلوغ أشرف الغايات ..

يا خال : ان لى صاحبا قطع من يومه لغده فكان له صبابة من

ال ، فتفتحت الافواه تريد أن تمضغه مضغا وتزدرده ازدرادا ، ونسوا أنها فضلة كفاح طويل وجهاد مرير فى حمارة القيظ وزمهرير الشتاء ، تقيه مغبة السؤال فى زمن اذا سألت فيه يد صاحب أو صديق افتقدت الصاحب والصديق !

يا خال : انى شهدت مأساة يندى لها الجبين الغليظ وتهتز لها الرواسى من الجبال ...

تعارفا طالبين فى الجامعة ثم مضى الزمن فأصبح كل منهما لصاحبه شقيق الروح ، كان الاول أستاذا ذا صيت ، وكان الثانى محاميا مغمورا يتعلق بأذيال الصحبة لعله يطفو ويكون له فى المجد نصيب

وبعد ثلاثين سنة كان للأول بنون ينادون المحامى المغمور بالعم العزيز ، فقد وجدوه فى الدار كأنه صاحب الدار ، يختلف اليهم فى الظهيرة والمساء ، ويقاسمهم الغداء والعشاء ، ويقاسمهم أيضا — والحق يقال — السراء والضراء . . .

وكان للأول قضية ، عليها يتوقف سمت الرجل ، أينحنى أو يمضى فى الدنيا منتصب القوام ؟

ورجا المحامى المغمور أن يتولاها فى المحاكم وألح فى التوسل والرجاء ، فقد كانت من قضايا الجيل ومن يتولها تصلت عليه الاضواء . . .

وأبى صاحبنا أن تكون القضية الا فى يد أمينة قادرة ، فندب

لها محاميا كبيرا فحلا فى دوائر المحـــاماة ، ورضى — من باب المجاملة — أن يقرن اسم المحامى المغمور باسم الثبت الاصيل ، ولا خوف من الصبى والعريف موجود !

لم يبخل الصديق على المحامى الصغير باليد والمعروف ، فسخا فى نقده أضعاف مايستحق حين جاء الحكم على مايشتهى ويريد ، ولم يكن للمحامى الصغير من جهد الا شرف الوقوف الى جانب العملاق الذى انتزع الحق كأى محام قدير يهز ببيانه منصـــات المحاكم والقضاء

ومنذ جاء اسم المحامى المغمور فى تلك القضية خيل اليه أنه شيء مذكور ، فبدا للناس منتفخا كالديكة الرومية ، ومشى فى الارض مرحا ، وكشف عن سوءة فى الانسان هى أسوأ مافى الانسان من سوءات ... الجشع ... والرغبة فى المـــال ككلب مسعور

ويبدو أن نهم المحامى الصغير قد جاوز الحدود بعد أن أصبح المال فى ضميره الها ترتل له الأناشيد ، فأخذ يوقع بين صـــاحبه وزوجه ، ومضى بالنميمـــة والدس يزيد فى النـــار اللهيب حتى استحالت على الزوجين الحياة وهما فى العش الكريم منذ بعيد

وكأن المائدة التى جلس حولها ثلاثين عاماوتذوق عيشهاوملحها من غير حســـاب حتى أتخم وكاد أن يطفح ما تناوله من طعام .. كأن هذه المائدة لا مكان لها فى قلبه الأسود الذى خـــلا من

الحب ، ولا اعتبار لهـا فى نفسه الامارة بالسوء العاطلة عن كل جميل .

ومضى المحامى الصغير بالزوجة الى المحـاكم يسب زوجهـا ويدفعها الى قول غير كريم حتى اغتصب من الساذجة البلهاء مئات الجنيهات ، كأى تاجر خسيس لايعف عن الصنف ولو كان أحط من الطافية والمخدرات !..

ثم انظر الى المحامى الصغير فى المحكمة وهو يرغى بقالة السوء فى صاحبه ••• ان كل ماعليه ينتفض ذعرا ويتبرأ مما يقول ••• انهـا بزته ••• انه جـوربه ••• انه قميصـه ... انه رباط رقبته ••• انه حذاؤه ••• انها جميعا تصرخ من نكران الجميل، وكأنها تقول لمرتديها : اخلعنى فانى هـدية من تسـبه وتزرى بقدره ، فقد جاء بنا من بعيد النبدو فى جسم أصيل ، لا ليزهو بنا عتل زنيم !....

أى والله ، انها هدايا الصاحب الكريم للخدن اللئيم ! !

يا خال : لقد طلب اليهودى وهو يحتضر أن يأتوه بالصليب ، فقبله وذرف عليه الدموع ! وذهل أهله كيف يقبل الصليب وكان يهوديا فى دينه تزمت ، وفى كراهيته للمسيحية رأس الكارهين ؟!

ونسى القوم أن الصليب من ذهب !! ...

صدقنى ياخال : ان اليهودى أكرم وأشرف من صاحبنا ، فتلك رسالة اليهود منذ عهد يوسف وموسى عليهما السلام ، والم يعرف

فى ذمة أصحاب الذمم أن يسقط صاحب من أجل بضع مئات من الجنيهات ! ...

يا خال : هل من وسيلة للحياة بلا مال ؟

سؤال المستجير الذى عز عليه الفكر والتدبير بعد فعلة المحامى الصغير ؟ !

وقال الخال ، ونعم ما قال : لاتسمه المحامى الصغير . انه نذل كبير ! !

قلت ياخال : هل تريد أن ترى المحامى الصغير الذى تطور الى نذل كبير ؟

قال : يابنى انه لامر عجيب أن تملك العين على صغرها كل هذا الفضاء الزاخر ، وتعجز أحيانا عن احتمال النظر الى أتفه الاشياء وأهونها ! . .

قلت ياخال : ألك أعداء مثل هذا العدو المبين ؟

قال : لم يكن لى قط أصدقاء ! ! ! ....

***

فى أعماقى ايمان بالله وقدرته ، واحساس عميق بأنه سبحانه وتعالى دائما الى جانبى ، وقد رأيت الله فى احسانه الى منذ نشأت صغيرا مضيعا لا أعرف لى قرارا ولا مصيرا

رأيت احسانه يوم دخلت المدرسة الخديوية ويوم التحقت بالجامعة ويوم استقلت من وظيفتى ، وهى أيام عصيبة قصدت فيها أعتابه فأنارت لى الطريق .... لذلك أرانى عارفا بالجميل أخافه وأخشاه ، وأتحدث بنعمائه وأفيض فى بيانها ، وأذكره كلما

اسودت الدنيا فى وجهى أو غمرت حياتى اشراقة النصر والتوفيق
ان هذا الذى يربطنى بالله عظمت جبهته وتعالت قدرته ، هو الذى شمخ بأنفى فى النوازل ، ورفع من شأنى فى المحن ،وجعلنى قوى القلب قوى الجنان ، فانى أؤمن بجبهة من تنهار أمام جبهته الجبهات ويضؤل ازاء جبروته جبروت المتجبرين ، وتصغر المردة أمامه فاذا هى أقزام ....

لاأنسى الصبيين الصغيرين وأمهما الى جوارهما وقد فتحوا أفواههم دهشة وحيرة لهذا الرجل الذى يدعوهم الى السينما يوم قطعت بينه وبين رزقه الاسباب ؟

وقالت أم البنين : ما أظنه يوما تزار فيه السينما !

قلت : يا امرأة . اهدئى ولا تجزعى حتى لاينساب الى قلب الولدين خوف أو ضيق ، واذكر الله ... انه هنا ... واذا طرق بابنا الزائرون فاعلمى أنها زيارة العزاء واليست بعدها زيارات ! ولا تقدمى لهم القهوة بل اسقهم شرابا حلو المذاق ! .
وما كنت يوما شديد الثقة بالله ثقتى به فى تلك الايام ...

وقلت لأم البنين : ان الله الذى سند الصبى الصغير وهو يطرق باب وزير المعارف ليتعلم ، وسنده وهو يقابل مدير الجامعة ليتعلم ، وسنده حين استقال من وظيفته فى قصر العينى ، وأعانه على ان يرد لك عافيتك حين أصابك المرض الخطير ، انه سيسنده اليوم رجلا استكمل من العلم قدرا غير يسير ، ومن الصيت قدرا

غير قليل ، ومن الايمان به ايمانا لا حدود له ولا قيود

وصبرت أم البنين ، ومضى الصبيان يأخذان حياتهما كأن شيئا فى حياة أبيهما لم يحدث ، ومضيت أنا أسعى فى الارض حتى أوفر لهذه الاسرة ما اعتادت من حياة هى أقرب الى الترف وفيها من السعة الشيء الكثير

وما حزنت قط حزنى لموقف بعض الزملاء حين تأزمت الامور ، فقد أدبروا وكانوا من قبل يقبلون اقبالا ، وشاركنى فى هـذا الحزن طباخ البيت فؤاد ، وكنت قد نشأته فعرف ذوقى وصحبى وسرى ، وكان اذا جاء الليل ودخلت سريرى أخـذ يقص على ما سمع من أنباء وما رأى من أحداث ، ويعلق فى براءة الأطفال على أخلاق الناس ثم يمصمص شفتيه أسفا على الصحاب الذين راحوا فجأة كأن لم يكن بيننا وبينهم حبل موصول !

وقلت لفؤاد وهو فى منزل الابن ومقام الصديق : اننا نجتاز أزمة وأحب أن أوازن بين المدخول والمصروف ، وصدق الطباخ وعده فقبض يده فى كل شيء وأعاننى على ما أنا فيه

لعله الوحيد ــ بعد أمى ــ الذى حنا على فى المحنة والضيق !..

وأخذت الأيام تمضى وفى ركابها أتون يصهر معدنى وغربال يسقط عن كاهلى الشعور بالضعف والخور ، وواتانى الله روحا عالية وقلبا صلدا زادانى ثقة فيه سبحانه وتعالى ، وكلما ضاقت بى الحال مر طائف يهمس فى أذنى أن أصبر على الدنيا ولا تخش شيئا ...

وصبرت حتى دفعتنى الحاجة الى زيارة صاحب أكبر مؤسسة للصحافة والطباعة فى مصر ، وهو زميل من زملاء العمر ، وطلبت اليه أن ينشر لى كتابا مقابل مائة جنيه أسدد بها مطالب العيال .

واعتذر الزميل الكريم ! ...

وكنت قد أصدرت كتابا عن سيرة الملك عبد العزيز آل سعود كشخصية عربية لها فى تاريخ العرب تاريخ وسميته (انسان الجزيرة) وبعثت بهدايا من نسخة لبعض أصدقائى فى الحجاز ، وبعثت بنسخة للشيخ محمد سرور الصبان الاديب الشاعر ، دقيق القلب رقيق الحاشية ، وأخرى للشاعر مرهف الحس الامير عبد الله الفيصل وهو شديد الاعجاب بجده الكبير كما أهديت نسخا لغيرهما من الصحب الذين يسيغون مثل هذا اللون من التأليف .

عدت الى البيت والحزن يمزق قلبى لحاجة الولد وندرة الصاحب ، فاذا الله الى جوارى ..

وجدت رسالة من صديقى الشيخ سرور الصبان ، وهو زعيم عربى له قدره وفضله ، وانه لمعدن من الرجال جدير بكتاب ، وجدت رسالته وفيها ، تحية رقيقة ونقد جميل لكتابى ، وشكر على هديتى ، ثم شراء خمسمائة نسخة من « انسان الجزيرة » توزع هدية منه على فضلاء المصريين ! !

رجوت صديقا وزميلا أن ينشر لى كتابا مقابل مائة جنيه فاعتذر ، واذا الله سبحانه وتعالى يمسح على كتفى ، ويجفف عبرة كادت أن تطفر من عينى وأنا أنصت الى اعتذار الزميل الصديق ، ويقول لى : ياهذا انك آمنت بمن يستطيع وحده أن يشد أزرك ويسند ظهرك ويقيك شر العوز والحاجة ، بل يكسف بفضله فضل من قبض عنك فضله ، ويكشف لك من خيراته أضعاف مارجوت غيره من خيرات

يا هذا ... ان ربك لكبير ...

وعدت من عند سكرتير الشيخ وفى جعبتى خمسمائة جنيه !... ووقفت علامة الطريق الحمراء سيارة احسان عبد القدوس الى جانب سيارتى ، فسألنى عن الحال ، وشرحت له فى كلمتين قصة الامس مع الزميل الصديق ، فرجا أن ألقاه عصرا ، فاذا التقينا اشترى حق نشر الكتاب الذى اعتذر الصديق الزميل عن نشره مقابل مائة جنيه ! ثم زاد فطلب أن أكتب له فى كل أسبوع مقالا مقابل أجر معلوم ! ...

الناس معادن ؟ ! ...

ثم يمضى أسبوع اثر أسبوع ، وكل يوم تباع مئات النسخ من « انسان الجزيرة » حتى خشيت الحسد ، وقال الاصدقاء سعداء ساخرين : لقد أصبح لصاحبنا رصيد ، وانتهى الرصيد الى عدة آلاف من الجنيهات ! ! ...

وقالت أم البنين : لقد آن لى أن أنال مما رزقك الله ، ومن حقى

أن أحيل هذا النصيب كما أشاء الى ما أشاء ! وفهمت أن حوانيت الاحذية والفساتين والعطور سيصيبها خير كثير ؟! ..

وقال الصبيان : لقد نجحنا فى الامتحان ، وأنت اليـوم ذو مال ، فعليك بالدراجتين وكساء الصيف أشكالا وألوانا ، وبيت نصطاف فيه كما عودتنا فى الشدة والرخاء

وكان للأسرة كل ما تريد ..

وعزمت على أن أبسط لنفسى حقها أيضا ، فشددت الرحال الى أوروبا لاقضى فى جبال فرنسـا وريف انجلترا شهرا ، واذا بى أدعى الى القاء نحو عشرين حديثا فى اذاعتى البلدين ، وأجر الاحاديث فى تلك البـلاد مجز ومفيد ، واذا بى أقضى الوقت فى البحث والدرس لتجىء الاذاعات على النحو الذى أحبه لنفسى ولمن يسمعنى ، واذا بى لا أصرف من التحويل الذى حملته معى قرشا ، بل فاض الخير فعدت الى القاهرة مزودا بكل جميـل وطريف ومفيد لام البنين وبنيها ..

وكان صديقى وتلميذى الاميرالاى كمـال عبد الحميد على صلات طيبة بالمسئولين فى الكويت ، فتحدث الرجل عنى حديثا يكشف عن رجولته وخلقه الكريم ، وآزره فيما سعى اليـه الصديق الأستاذ فكرى أباظة ، وصـاحبى الدكتور نور الدين رجائى ، وما أخذت سعى كمال عبد الحميد مأخذ الجد قط ، فقد كنت فى تلك الايام قليل الثقة بالناس ، لذلك سافرت الى أوروبا

وليس فى ذهنى شىء عن الكويت ، ولا عن لون العمل الذى رشحنى له تلميذى الحبيب

فلما عدت من الرحلة التى بسطت لنفسى فيها حقها ، علمت أن مدير المطبوعات والنشر الكويتى ينتظر عودتى من أسبوعين ، وعتبت على أم البنين أن تهمل الابراق لى أو تحدثنى فى التليفون لأعود ، فان انتظار الرجل أسبوعين عمل لا يليق ، فاذا بها تنقل لى حديثا عنه دفعنى دفعا الى تقدير الكويت وحب الكويت

قال لها الرجل : ما ينبغى أن أقطع عليه أنسه أو أقتحم عليه اجازته ، فقد لا نتفق ! وحتى اذا اتفقنا فانه لشىء بغيض أن ينتزع الانسان من لهو الحياة فى لندن وباريس الى حمارة القيظ فى الكويت !

أليس هذا حديث رجل معقول ؟ أليس رأيه فيما رأى علامة على سماحة النفس والصدر المستريح ؟ أليس هؤلاء الناس جديرين بالصلة والمحبة والتقدير ؟

ثم التقيت بالصاحب الذى كأنى له صاحب منذ قديم ... التقيت بأول من عرفت من الكويتيين ، فاذا هو مرآة لهم مجلوة ليس فيها خدش ، وواجهة ليس فيها غيام كثير أو قليل ...

التقيت بالصفاء فى أسمى معانيه ، وأحسست قلبا خلا من كل نقيصة ، وأنصت الى حديث برأ من الدغل والخداع ...

أقسم أن مدير المطبوعات في الكويت قد حببني في الكويت وأهل الكويت ، فلم تمض لحظات على لقائي للسيد بدر الخالد البدر الذي أعجبني اسمه ورسمه حتى وقعت عقدا لخدمة الكويت كخبير لدائرة المطبوعات والنشر ...

٨

شد المصريون الى أرضهم بقلوبهم وأجسامهم ، فلا فكاك لهم منها ، ولعل سهولة العيش فى سهول مصر هى السبب الاول فى هذه الحقيقة ، لاننا ، منذ آلاف السنين ، ونحن نغذ السير فى العالم شرقا وغربا ، ثم نعود ولا نخلف وراءنا أحدا من مواطنينا ليستقر هنا أو هناك ، أو يمضى عمره فى حياة هذا البلد أو ذاك

ونحن المصريين ، لا نحب فراق أرضنا أو التغرب عنها ولو الى حين ... ليس فى الدنيا أجمل من مصر فى عقيدة المصريين ، مهما يكن فى مصر من شظف أو ضيق أو أثقال تنوء بها الظهور أو النفوس

راق لى أن أضرب فى الارض حين ضاقت بى الدنيا ، واخترت أوروبا مكانا أسعى للرزق فيه ، وتخيرت باريس بالذات حيث لى بها علم ، وحيث زرتها سبع مرات وبقيت فيها كل مرة شهورا تعقبها شهور ، ولا تخلو من صديق لى فى هذه المؤسسة أو تلك ، وكنت أرجو أن أجد فى اذاعة باريس مكانا يناسبنى ، بيد أن التنافر الذى أحسسته بين سياسة بلادى وسياسة فرنسا جعل من المستحيل على مثلى أن يلتمس رزقه هناك ، فمضيت أتنقل من باريس الى جنيف الى غيرهما من البلاد حتى استقر بى المقام

فى بيروت ، وكدت أصل عيش فيها وأربط طيرى بها ، غير أن القدر كان قد كتب لى مصيرا غير هذا المصير ، وأرضا غير تلك الارض ، لأغذ السير اليها وفى قلبى الطمأنينة والسلام ...

واختار القدر جدة ثغر المملكة العربية السعودية ليكون هو الأرض وهو المصير ...

والتقيت فى بيروت بصـــاحب أول وأكبر مؤسسة للطباعة والنشر فى الحجاز السيد أحمد عبيد ، وهو رجل رقيق الحاشية فيه أصالة ، وقد حدثه عنى صديقى أحمد قاسم جودة،واختارنى مستشارا لمؤسسته التى شغلتنى شهورا حتى استوت أمورها ونضجت فاكهتها ، وتوجت جهدى باصدار مجلة (الرياض) وهى أول مجلة أدبية اجتماعية مصورة عرفتها المملكة السعودية، ولم تعرف من بعد لها ضريبا

وكان القدر صاحب الرأى الأول فيما كنت فيه ، اذ أقبل الصيف ، وصيف جدة شىء ثقيل على من أرهفت الحـــوادث حسه ، فلم أطق صبرا عليه ، فضلا عن التحنان للوطن وقد غبت عنه وعن الولدين نحو تسعة شهور ، ومرض الغربة كما يقولون طبع فى المصريين ، والبعد عن مصر يهد الاعصاب التى قدت من حديد ، وليس بعد مصر بلد يطيب فيه العيش لمصرى ، وان كانت مواطن العروبة كلها وطنا لكل مصرى يسعى الى الرزق منقطع أو موصول

وطنى لو شغلت بالخلد عنه نازعتنى اليه فى الخلد نفسى
وصدق شوقى أمير الاحساس بكل نبيل ...

ثم ودعت الصاحب الكريم أحمد عبيد ، وعدت الى القاهرة فترة من الزمن لأتركها الى الكويت حيث طابت لى الحياة فى العمل وسعدت بالصحب الجديد من خيار الكويتيين ...

كنا فى أواخر شهر أغسطس حين وقعت عقد العمل فى الكويت كان جو القاهرة ثقيلا على الصدر ، وما شعرت بضيق كما شعرت اذ ذاك ، ورأيت نفسى غير قادر على الكلام الا فى الفطير من الرأى العاطل من المعانى ، الخالى من كل لماحة أو فطنة

وكنت قد بدأت فى انشاء كتاب عن جانب من تاريخ صحافتنا، فكان الملل يسيطر على قلبى وعقلى جميعا ، وكادت الرطوبة التى أخذت علينا أنفاسنا أن تحطم أقلامنا وتهدد شجاعتنا وتمحو ما فطرنا الله عليه من رعاية الحق فيما نكتب ، والرطوبة تخلق دائما أزمة فى نفسى ، وتفسد عادة طبيعتى فى النظر الى الأمور والاشياء ، وترسم حدودا لنشاطى بحيث لا أستطيع أن أتجاوزها أو أتخطاها

وقلت لصاحبى مدير مطبوعات الكويت : اذا كان هذا هو جو القاهرة فيا لى من جو الكويت !

قال الرجل كلمة صدق : إن جونا مهما تعل رطوبته وتهب ريحه مثقلة بالسفا والحصى ، فان مواطنى يعالجونه على نمط

فريد ، فلا يعوق نشاطهم عائق ، ولا ترهبهم سطوة الرياح التى تعصف بالصوت ان علا أو يحبسه غبارها عن الوضوح والبيان ، وتقصف القلم ان حدا الى الصحيح من الامور !

وقال ضاحكا ... يا للقاهريين من صيفهم ! ... وبورك فى صيف الكويتيين ...

ونزلت من الطائرة فى مطار الكويت ظهر يوم شديد الحرارة ، وكان فى استقبالى سكرتير دائرة المطبوعات والنشر السيد فاضل خلف ، وعجبت أن التقطنى الرجل من بين خمسين راكبا ، وأبطل عجبى حين قال : وصفك السيد بدر ، فرأيتك أقرب الى القصر فى الرجال — قالها والحياء يغمره — أسمر اللون — أشيب الشعر ، سريع الحركة ، ثم خلع على بعض النعوت التى تسر خاطر ضيف جديد !

وأعجبنى خالد خلف ، وراقنى أن يتميز سكرتير الدائرة بالرقة والادب الجم ، والتواضع وهو سمة من سمات أهل الخليج

وذهبنا الى دائرة المطبوعات ، وكانت حجرتين فى بناء حديث فى الشارع الجديد ، وكان فى سنة ١٩٥٥ جديدا حقا ، ومع أن عشرات من الشوارع الجديدة قد شقت بعد ذلك وهى أطول وأوسع منه ، الا أنه مضى يحمل اسم الشارع الجديد !

وقدمنى السيد فاضل الى الموظفين ، والمراقب الفنى السيد

أحمد منيمنة ، وهو لبنانى من فلسطين ، ومن الاسر العربية المعروفة فى تلك الجهات وكان — ولا يزال — يشغل وظيفة المراقب الفنى لمطبعة الحكومة وهو رجل كفء قادر على العمل ، كريم الخلق ، جم الادب ، حلو الخصال ، ورغبت أن أتعرف الى الجميع ، العمال والسعاة والسائقين ، وكان عدد الجميع فى الدائرة لا يتجاوز العشرين وهم اليوم بضع مائين ! ...

ثم انتقل بن فاضل الى الفيللا التى اختاروها لى فى الصليبخات وهى احدى ضواحى الكويت ، وترقد فى حضن الخليج وتمضى المساكن فى رمالها صفوفا ، وهى متشابهة متجانسة يتوه فى التعرف عليها زائرها بل يتوه فيها أحيانا بعض الساكنين

وقد أعجبنى كل شىء فى سكنى من موقع وأثاث ومعدات وتهوية وتبريد ، فقد كان ذلك غاية المنى من أجل الولد وأمه ، وأنا أعلم كم تريد أم البنين من رغبات وهى تتهيأ للحاق بى الى بلد كانت من أشد الناس معارضة فى السعى اليه أو العمل فيه ...

ثم ذهبنا الى « جراج الغانم » واخترت سيارة جديدة ، واخترت سائقها أيضا ، فقد كان من حقى كخبير أن تكون لى سيارة ، وكانت متاعب السيارة فى سائقها وهو نصفه عربى ، فقد كان نصفه الثانى على الضفة الأخرى من الخليج !

لم يفهم أحدنا الآخر .. ان قلت له : حاسب ! أى احذر الطريق قال لى : على أى شىء أحاسب وليس معى مصارى ؟ والمصارى هى النقود فى تعبير الكويتيين ؟ وان قلت له : دغرى ... نظر بدهشة وعطل المرور ! واضطررت الى تعلم اللهجة والعبارات الكويتية ليفهمنى الرجل ، فكتبت فى ورقة : دربالك يعنى حاسب ! وسيدا أو جبل يضم الجيم وفتح الباء يعنى دغرى ! ... وغير ذلك من ألفاظ ، وكنت اذا حاولت التحدث اليه أخرجت الورقة ونقلت اليه ما أريد ؟ ! ...

ثم زرت فى اليوم التالى شيوخ الكويت ، وهم أمراؤها الذين يسوسون دوائرها المختلفة ، ومنذ تعرفت الى بعض منهم بقيت صلتى به وثيقة الى اليوم ، وكان فى الكويت اذ ذاك الشيخ سعد العبد الله نائب الشرطة وابن الحاكم العام وهو شاب رقيق الحاشية تميز بقلبه الكبير وخلقه المستقيم وعقله المستنير ، وقد أحسن لقائى واحتفل بمقدمى ، كما حيانى وأحسن تحيتى رئيس دائرة الكهرباء والماء الشيخ جابر العلى .

وكان عمر دائرة المطبوعات والنشر فى الكويت عدة شهور يوم التحاقى بها فى سنة ١٩٥٥ فعكفت على دراسة نشاطها وبدأت أرسم لهذه الدائرة ماهى جديرة به ، معنيا لا بتنظيم أقسامها فقط بل برسالتها فى مقام الكويت وحياته العامة ، واقتضى ذلك أن يعمل الموظفون صباحا وعصرا ، وقد يطول العمل الى ساعة

متأخرة من الليل ، ونقدنى كبار المصريين وقالوا : ماهذه العجلة ؟ يا أخى على مهل ، فأمامك السنوات لتنتج وتفيد ! ...

انني صورة ممتعة للمصريين اذا نزحوا عن بلادهم ، أحيا فى قلق ، وأعيش على أمل العودة الى الوطن الحبيب ، وقد عالجت القلق بالعمل ، العمل دون توقف ودون هوادة ، وكم كرهت أيام الجمع فى الكويت ، وحمدت الله على أن الأعياد الرسمية قليلة وليست بهذا السخاء الذى عرفناه فى مصر منذ قديم

لقد أنقذنى الكويتيون من نفسى ...

كان الهم يشغل قلبى ، وكان الضيق بالحياة يسيطر على حياتى ، فاذا القوم يحسنون استقبالى ويكرمون وفادتى ، ويسخون معى فى كل شيء ، قلت لأم البنين : يا امرأة : اننا هنا نخدم أصحاب الدار ، ونخدم بلادنا فى خدمتهم ، ونخدم أنفسنا بقبض اليد عن الاسراف ، وعلينا أن نعض بالنواجذ على الدانق والسحتوت ، ويكفى ما عندنا من أقمشة وعطور ! ! ...

وقد كان ...

لم يكن لدائرة المطبوعات والنشر شيخ بالذات ، فقد كنا نتبع هيئة مكونة من بعض الشيوخ وبعض المواطنين الكبار ، وكان هذا الوضع مؤذيا للدائرة ووظيفتها ، وكثيرا ما ثبط همتها وعطل حيويتها ، وهى فى ذمتى أخطر دائرة فى حياة شعب يتطلع الى أسمى معانى الحياة

وقد رأيت فى الكويت نهضة تفوق الخيال ، وقد استخفت هذه النهضة على جميع بلدان الوطن العربى ، حتى أن القوم فى مصر لايعلمون شيئا عن الكويت ، بل ان أهل العلم عندنا أخطأوا موقع هذا البلد فى الرسوم الجغرافية ، فرأيت أن تكون فاتحة أعمالى التعريف بالكويت وأن أكشف عن هذا الجديد الذى يجهله العرب وتجهله مصر خاصة ، بطبع كتاب ضخم عن الكويت وسميناه (سجل الكويت اليوم)

ولا يزال « سجل الكويت اليوم » خير دعاية من الكويت ...

ثم وضعت تقريرا عن نظام الدائرة وأقسامها وأخذ به القوم ولعلهم يسيرون على هديه الآن

ثم رأيت المطابع الجديدة ملقاة فى الميناء فى صناديقها ، رابضة تنتظر من ينتشلها الى مكان تنصب فيه وتهدر بطبع كل مفيد ، فاقترحت أن يختار لها المكان فى أى مكان ! ونفذ الاقتراح بقرار من مجلس الشيوخ

ولم أجد فى الكويتيين واحدا له علم بالطباعة فاقترحت أن نبعث بعضا من شبان الكويت الى القاهرة ليدرسوا ويتعلموا فى مؤسساتها المطبعية رسمية وشعبية ، حتى اذا عادوا كان الامر اليهم فى شئون مطبعتهم ، وهذا اتجاه يجب أن يكون فى كل دائرة نصب عين كل خبير ... وقد كان ...

وشعرت — للأسف الشديد — أن مقترحاتى لم تلق مكانها من

التأييد عند بعض الناس ، فانشاء مطبعة حكومية بدا لبعض من هذا البعض معطلا لمطابعهم ، وهى فى واقع الحق مطابع بدائية ولاتستطيع أن تواجه حاجة الحكومة التى يضطرد نشاطها،والتى تضطر بعض دوائرها الى طبع أوراقها وسجلاتها فى بيروت والقاهرة بأثمان فاحشة

ثم بدا لبعض من هذا البعض أن تعليم الكويتيين فنون الطباعة من شأنه أن يقطع أرزاق العمال العرب الذين يعملون فى مطبعة الحكومة وقد سعوا اليها سعى الغريب الذى يريد أن يعيش فى هذا البلد ويقيم

ولم أفكر فى (البعضين) وأنا تغمرنى الحماسة ويدفعنى الواجب لاقامة المطبعة وتعليم الكويتيين مهنة الطباعة ، فان غضب (البعضين) لم يكن فى حسابى ، وحين وقع هذا الغضب وثارت ثائرة هؤلاء الناس وانتشروا يذيعون الاحتجاج المقول والمكتوب ويبدون المعاذير تارة ، والاقاويل أخرى ، لم تهتز شعرة فى رأسى ، اذ كانت قضية (البعضين) خاسرة ، لان حكومة الكويت قد اشترت جزءا من المطابع فعلا قبل أن أنتدب لعملى ، وكان لابد أن تنصب وتقام ، وكان لابد أن تستكمل هذه المطبعة وأن يكون أمرها للكويتيين أنفسهم طال الزمن أو قصر ، لا للمصريين ولا لغيرهم ، الا اذا دعت الحاجة الى الاستعانة ببعض من هؤلاء أو هؤلاء .

وأقيمت المطابع وهدرت فى أكتوبر ١٩٥٦
وتعلم الكويتيون فى مصر الطباعة وشغلوا وظائفهم بعد سنتين ...

وأصبحت - أنا - ثقيل الظل على كل صاحب مطبعة ... ثقيل الظل على الكثيرين من اخواننا غير الكويتيين الذين يعملون فى مطبعة الحكومة عمالا وفنيين !

وزاد الطين بلة كما يقولون ، صدور قانون المطبوعات الخاص بالصحف والكتب ، والمجلات ، وهو القانون الذى وضعه لحكومة الكويت أستاذنا المغفور له الدكتور كامل مرسى الثبت الحجة والفقيه المصرى المعروف ، وشاركت أنا بالرأى فى بعض ماجاء فى هذا القانون

وقد كنت - فى أول الامر - سعيدا بوضع هذا القانون لعدة أسباب ، فهذا أول قانون يوضع لتنظيم ناحية من نواحى الحياة فى الكويت ، والكويت شعب متطور واع جدير بأن تكون له نظم وقوانين ، وموافقة الحكومة الكويتية على وضع هذا القانون فيه تسليم منها بكثير مما كان لها من حقوق ، ويعنى ذلك تعاقدا بينها وبين الشعب على أن يكون القانون هو الحكم وليست النزوات أو الاغراض هى الحكم فيما ينشب من خلاف، ثم ان صدور الصحف فى الكويت خاضعة للرقيب أمر ثقيل على من يعرف مقام الصحافة فى حياة الشعوب ، وصدور هذا القانون سيعفى المطبوعات من الرقابة والرقيب ، وثالث ما أسعدنى أن

أرى صحفا فى الكويت تنقد وتوجه وتثور على كل عيب ، وقد أباح لها القانون النقد فى أوسع نطاق

وغضب على كثيرون ، كيف أساهم فى وضع قانون يحد من حرية الصحافة ؟ وقال هؤلاء نريد صحفا بلا قانون ، أو قانونا لا يعرف للرأى حدودا ولا يرسم لأقلامنا الطريق !

وقلت ان القانون الذى وضعه كامل مرسى انما نقله فى معظمه من أكثر قوانين مصر والبلاد العربية حرية ، ثم انه لا يوجـد فى العالم شعب متحضر يصدر صحفا بلا قانون ، وليست العبرة بالقانون انما العبرة بتطبيق القانون !

وسخط بعض هؤلاء الشبان على كامل مرسى وعلى من أجل هذا القانون . وآزرهم بعض أصحاب المطابع وبعض اخواننـا فى مطبعة الحكومة ، ولم يغير ذلك من رأيى فى أن وضع القانون عمل يشرف واضعه ، ويبين عن أشرف المقاصد ، وموافقة الحكومة عليه كسب شعبى كبير ...

ثم اقترحت على المجلس الاعلى فيما اقترحت انشـاء مجلة للأدب والفنون والعلوم تكون رسالة النور والعلم من الكويت للناطقين بالضاد فى كل مكان ، ووافق المجلس على الاقتراح وكان ذلك فى ابريل ١٩٥٦ وبدأنا نعد لها ونرتب من أجلها سنة كاملة ، حتى اذا بدت ملامح المجلة واضـحة عزمت على العـودة الى الوطن الكبير

وظهرت مجلة (العربى) بعد سنة أخرى ... كانت لنا فيها الفكرة ، ووفق الله غيرنا الى اصدارها فى هذا الاطار الدقيق

وما ينبغى أن تفوت سيرة (العربى) دون أن أسجل الفضل لاصحابه ، فان وراء هذه التحفة الفنية رجلا آثر أن يكون مجهولا وهو أديب كويتى يعرفه مواطنوه ، وأحب أن يتعرف عليه عشرات الالوف الذين يقرءون (العربى) ...

انه الاستاذ أحمد السقاف نائب المدير العـام لدائرة النشر والمطبوعات

انه فى هذا الميدان قائد حمل على كتفيه عبء المعركة وترك لغيره الزهو بالبنود والاعلام ! ..

ما كرهت فى حياتى شيئا الا نكران الجميل والضن بذكـر من يستحق الذكر فى كل عمل جليل

لذلك ينبغى أن نسجل لمدير المطبوعات حقه فيما نالت دائرة المطبوعات والنشر من السداد والتوفيق ، فكل عمل عظيم ، كان هو مرجعه وهو الذى ركض من أجله حتى تهيأت له أسـباب النجاح ونحن وراءه عوامل تأييد وتشجيع

ان بدر الخالد البدر مواطن كويتى يستحق تقدير الوطن ، ولا أعنى بالوطن هنا ، الكويت ، بل أقصد الوطن العربى جميعا الذى أفاد من نشاطه واخلاصه وحسن نواياه

ليس بقلبى لغط كثير أو قليل نحو أى كويتى ممن ضـاقوا

بآرائى ولم يعجبهم ماذهبت اليه من أمور ، فان حبى للكويت يكاد يبلغ ما أشعر به من حب نحو مصر وطنى الكبير ، ذلك أنى عرفت فى الكويت المودة والصفاء ، وعرفت فى أهلها خلائق يندر وجودها فى مربعنا الكبير

قال صاحب أديب وأنا أتحدث عن الكويت وأهل الكويت فى مجالس القاهرة :

يا أخى : فى مثل هذا الحماس ، وبهذه العواطف لا يتحدث الا العشاق وهم يروون ويصفون ؟ ! ..

هذا هو نصيب الكويتيين عندى ؛ وليس يعنينى مالى عندهم من نصيب ...

***

لم يكن نظام الحكم فى الكويت مكتملا فى سنة ١٩٥٥ وقد أصبحت الحياة الرسمية اليوم أكثر وضوحا وملامحها وضاءة الجبين ...

وضعت القوانين ونظمت الادارات ، ولم يعد الانسان حائرا لمن يشكو مغتصبا أو معتديا ، فقد كان يقف فى ساحة الصفاة ويشاور عقله : أيذهب الى الامن العام ؟ أو الشرطة ؟ أو المحاكم ليقيم دعواه ؟

جهة واحدة الآن تستطيع أن تلجأ اليها شاكيا ان عز بينك وبين خصمك الاتفاق .. الى دائرة العدل ، وليس فى غير دائرة العدل قاض يفتيك بكلمة الحق ، وكانت كلمة الحق من قبل موزعة بين ثلاث جهات ...

والتعليم فى الكويت قدوة وأسوة والفضل فى هذا بعد الكويتيين أنفسهم يعود الى رجل دخل التاريخ من أوسع أبوابه ، وهو الشيخ عبد الله الجابر الصباح رئيس دائرة المعارف ، ثم الى موظفيه كبارا وصغارا ، كويتيين وغير كويتيين ، وفى مقدمتهم عبد العزيز حسين وعبد المجيد مصطفى ، والاول مدير المعارف وهو كويتى يعرف واجبه ، والثانى مصرى جدير بكل تحية وتقدير

ان للنفط دخلا كبيرا فى الصورة البديعة التى يبدو عليها التعليم فى الكويت ، فهذه البنايات الضخمة الجميلة للمدارس ، وهذه اليد المبسوطة للقائمين على التعليم ، وهذا السخاء فى رعاية البنين والبنات ، يرتبط كل هذا بما أفاء الله على البلاد من خيرات النفط .

ثم ماذا ؟

الجميع يتعلمون وقلة تستكمل دراستها فى الجامعات خارج الكويت ، وهذه القلة تدرس فى أكثرها دراسات نظرية

لقد بذل المشرفون على التعليم أقصى الجهد لتوجيه المتعلمين توجيها جديدا يناسب حاجات البلاد ، وبذلوا من ألوان التشجيع غاية مايبذل فى هذا الباب

ويبدو أن الأمر يحتاج الى جهد جديد وتشجيع جديد لينتج كفاح العاملين الغرض المطلوب فينصرف الطلاب عن الدراسات

النظرية ويفيدوا من الدراسات العملية التي لم تأخذ بعد مكانها بين المتعلمين في الكويت

ليس في الكويت — على قدر علمي — الا مهندس واحد ، ولا أدري مكانه في فروع الهندسة ، وليس فيها أكثر من طبيب أو طبيبين ، وليس فيها الا قلة نادرة ممن مارسوا التربية والتعليم ، وحتى هؤلاء يهربون من وظيفة المعلم وهي أشرف الوظائف في كل عرف ودين ...

انه لشيء محزن أن يتجاوز الكويت في تعداده ربع مليون نسمة ويفتقد بين أبنائه المعلم والمهندس والطبيب ؟

انها مفارقة صارخة ... أن يعيش هذا الشعب الغني القادر على الاقتراض ... اقتراض الاطباء والمهندسين والمعلمين ! .. فاذا كان هذا ميسورا اليوم ليسار الدولة فماذا لو جف النفط أو قل مدخوله أو غلبته الذرة ولم يعد له كل هذا المقام المقدور ؟

هذه وجهة نظر أسجلها كأني كويتي يخشى الايام ، ولا تنسوا أني معلم قبل أن أكون صحفيا أو خبيرا للنشر والمطبوعات ...

***

رأيت في دائرة المطبوعات والنشر زميلا تأنس له بعد النظرة الخاطفة ، وتحبه ولا تسلو مجلسه ، انه دائرة معارف للعلم والشعر والحكاية والرواية ، متنقلة من مكان لمكان ... انه جيل نادر بين أجيال العرب بما يحمل قلبه من حب للجمال ، وبما

يحمل أيضا من هموم الحياة ... انه صديقى السيد عبد البارى الزواوى ... وهو سيد بأصالته وطبعه وسيرته فى الناس ...

ما كان يمر يوم الا وأرى الزواوى فى الدائرة أو فى بيتى أو بيته ... وفى بيته كون مكتبة ، له فيها آلاف الأوراق التى كتبها للتاريخ ولم تطبع بعد ، سجل فيها أحداث الوطن العربى يوما بعد يوم ... انه يذكرنى بالجبرتى ، ومن عجائب الأمور أن يكون أسلوبه كأسلوب الجبرتى صاحب العجائب فى الرواية والأخبار ! ...

هذا الرجل فى دائرة المطبوعات والنشر ، ولو كان الأمر بيدى لاخترت له فيها وظيفة جديرة بعقله الواعى الكبير ، فانه أكبر جدا من أن يكون رسولا للمشتروات ! ! ...

وفى بداية صيف ١٩٥٦ عين لدائرة المطبوعات والنشر شيخ جديد هو الشيخ صباح الاحمد بن الحاكم السابق للبلاد المغفور له الشيخ أحمد الجابر الصباح ، وكان من حكام الكويت المعدودين ، وفى أيامه أكرم الله الكويت بالخير الوفير وتفجر النفط من غير حساب

والشيخ صباح الاحمد شاب يرتاح الانسان لسماته الطيبة ، وفيه من أخلاق الأمراء كل مافى الامراء من أصالة وحسن تدبير ، وهو من أنشط رؤساء الدوائر وأقربهم الى قلوب مواطنيه ... تقى لا تفوته فريضة ، ورع لا تصدر عنه كلمة سوء

كان اختياره شيخا لدائرتنا مفترق طريق لهذه الدائرة ، فاذا الحياة تدب فيها وكان نبضها من قبل وئيدا بطيئا ، وهو شيخ مستريح الصدر ، صبور ، قادر على العمل ، يفيض وطنيــة ، مؤمن بالعروبة والوطن العربى ايمانا منقطع النظير

ولن أنسى يوم وقع الاعتداء الثلاثى على مصر ، فقــد كان شيخنا قائدا فى الميدان ، أذن لى أن أكتب افتتاحية الجــريدة الرسمية (الكويت اليوم) عن مصر وجهادها ، ولعلها أصــدق ماكتبت فى حياتى من مقالات ، وأمر بأن تدعو الصحيفة الرسمية الى اكتتاب لمصر كان سمو الامير الحاكم العام وأعضاء أسرة الصباح فى مقدمة المتبرعين ، وأخذت الجريدة الرسمية تنشر اسم كل متبرع أسابيع بعد أسابيع حتى كاد الاكتتاب لمصر يتجاوز من الجنيهات المليون •

وكنت مريضا فى يوم من أيام ذلك الاعتداء ، وتفضل الأمير بزيارتى والبهجة على سيماه والفرحة تنطلق من ثناياه ، فقــد استمع الى انذار (أختنا العودة) — على حد قوله — للانجليز والفرنسيين ، أى انذار روسيا للمعتدين ، جاء يعودنى مشكورا وينقل هذا النبأ العظيم ، وهو نبأ ملأ قلب هذا الشيخ الـكريم بكل جليل وجميل •••

أنت تحب الشيخ صباح الاحمد ولا تخشاه ••• وأنت تلقاه ولا تنساه ••• وأنت تعمل معه دون أن تتملقه أو تترضاه ••• أنت فى صحبة هذا الشيخ الشاب يغيب عن حسك سلطان الامير ،

ويحجب عنك أدبه شارات الامارة ووجهها الخطير

الشيخ صباح صديق حبيب ، وغاية مايرضى الشيخ أن تغفله أميرا وتراه دائما الصديق الحبيب ...

وهو حقا صديق حبيب ...

لقد كان الاعتداء الثلاثى حادثا كشف عن مقام العروبة فى قلوب الكويتيين .. كان محنة أبرزت رجولية الكويت وأهل الكويت ، وأبان عن نفسية قوم أحرار لا ينامون على الضيم ، ولا يرضون الذل ولا يقبلون لأخ منهم أن يهون ولو كلفهم الامر ما يطيقون ومالا يطيقون

أغلقت متاجرهم دون الانجليز والفرنسيين ...

وعطلت دوائر الحكومة احتجاجا وأصبحت صحيفتها الرسمية ميدانا لجهاد مصر ، ووزعوها على المواطنين بالمجان ...

ووضع الكويتيون على سياراتهم علم الجمهورية المصرية تأييدا لجهاد مصر واعلانا بالتضامن معها فيما هى فيه من محنة وبلاء ...

وحطم عين من كبار عيونهم الراديو حين زعمت لندن أن بورسعيد اثرت الرضوخ والتسليم ...

وسارت المظاهرات فى شوارع الكويت تهتف لمصر بالحياة وتدعو بسقوط المعتدين ، وشارك فى هذه المظاهرة كل عربى يقطن الكويت ، بل ومضت فتيات المدارس يشاركن فى المظاهرات

واعلان الاحتجاج ، وكان ذلك منهن عملا جريئا ، فمشاركة البنت فى عمل عام يجافى العرف والتقاليد

ولكنهن فعلن ذلك ، ولم يغضب أب أو عم أو خال ! ....

وكم حارت فى عينى الدموع لا تفيض ولا تغيض وأنا أرى كل هذا الايثار لوطنى المجاهد الجريح ! .

لعل صاحبى الأديب يعرف الآن لماذا أتحدث عن الكويتيين فى مجالس القاهرة كأنى عاشق ولهان ؟ !

وبودى ألا يفوت مواطنى أن للكويت وضعا سياسيا دقيقا ، وأنه مربوط بميثاق مع الانجليز ، وأنه بالرغم من هذا الرباط ، فان القوم فى محنتنا تهيأوا لمشاركتنا فى جميع النتائج ، وتعنى المشاركة هنا فرض الاحتلال على بلادهم ، واضطرابا فى تصريف النفط ، وغير ذلك من شجون يحزن المرء لو وقع شىء منها على هذا البلد الطيب الكريم

ولا أحب أن يعيب أحد على الكويتيين أن تكون بينهم وبين الانجليز معاهدة تفرض معاونة أهل الكويت اذا هوجمت بلادهم من هنا أو هناك ، فالكويت اليوم محط أنظار الجيرة والأفواه له فاغرة ، وتدعى ايران أنه جزء منها ، ويراه العراق لواء من ألويته ، وغيرهما من الجيران يعتبره بطنا من البطون ؟ ! ...

ولا يغرى هؤلاء جميعا بالكويت الا نظرتهم المادية اليه ... تراه انجلترا آخر بنك لها خارج انجلترا ، ويريده الآخرون أول

بنك لهم خارج بلادهم !!

اذا تمكن العرب من تحقيق وحدتهم السياسية الشاملة الجامعة المانعة بحيث يستطيعون ضمان حرية الكويت وسلطانه ، والذود عنه اذا طمع فيه طامع ، حق لنا أن نعيب على الكويت أن يمضى وله بالانجليز رباط ••• أما دون ذلك فليس للكويتيين غير هذا الرباط ؟ !

هذا رأى لا يعجب النعامة ، وما أكثر ماتضم بلادنا من نعام !..
وماذا كان موقفنا نحن المصريين وأولادنا واخوتنا يجابهون الموت فى الميدان ؟

مارأيت المصريين عصبة ، ولا قلوبهم واحدة ، ولا أنفسهم متجاوبة الا فى أيام ذلك الامتحان •••

ويبدو أنه لابد أن تكون بلادنا فى محنة دائمة حتى يبقى المصريون خارج بلادهم أخوة ، موحدة صفوفهم ، لايأكل بعضهم بعضا ، ولا يغتاب بعضهم بعضا ، ولا ينقص بعضهم من قدر بعض ؟ ! ••

ماعجبت لشىء عجبى لنا ونحن خارج بلادنا ! كأننا سمك ! .
الشاطر من يلتهم صاحبه ••• الشاطر من يؤذى مواطنه .. الشاطر من يهدم بيت أخيه ويقف على أطلاله ! •••

انتشر ولد من أولادنا الذين تخرجوا فى كلية الآداب ، وكان يعمل مدرسا فى مدرسة كويتية ابتدائية ••• أقول انتشر كما

ينتشر الوباء الخطير ، يطلق لسانه فى كل مصرى كبير ... هذا مغضوب عليه ! وهذا جهول ! وهذا خارج فى التطهير !!

وعجبت للفتى الصغير ! ما حظه لو صدق الكويتيون قالة السوء التى يزعمها فى مواطنيه الكبار ؟ فلن يكون رئيس البعثة التعليمية أو الطبية ، ولن يكون بحال خبيرا فى المالية أو المطبوعات ! ! ..

اننا فى خارج بلادنا سمك .. ويستوى فى ذلك من سمت مراكزهم أو هانت .. العلماء منهم والجهلاء سواء ... اننا نعيش فى خارج بلادنا على دغل ، النميمة رائدنا ، والذم قاعدة رسالتنا ، والهدم وسيلتنا للحياة والبقاء ...

رجل واحد راقت لى صحبته ، فانه رسول لوطنه جدير بحمل الرسالة ، قمين بتقدير الوطن واكبار المواطنين ... عبد المجيد مصطفى رئيس البعثة التعليمية فى الكويت ...

ما سمعته قط يقول الا صدقا ولا ينطق الا حقا ، ثم هو رجل شهم تجده فى الشدة والضيق ، وتراه حفيا بكل مواطن تنزل به محنة أو تصيبه غاشية من قريب أو بعيد

انى أحنى الرأس دائما لمن يؤمن بحق وطنه عليه ، وما انحنت رأسى قط الا لمن يعرف كيف يرفع رأس مواطنيه ...

لقد كنا — نحن السمك — موضع النقد الشديد من اخواننا الكويتيين ، اذ ساءهم أن ينهش بعضنا بعضا ونحن من بلد يدعو

زعيمه الى الوحدة والتئام الشمل ونشر السلام والتمكين للصفاء من القلوب

وحتى فى تدمير بعضنا بعضا لم نكن منطقيين !

انى أعلم أن السمك الكبير هو الذى يأكل السمك الصغير ، فكيف يحاول السردين أن يلتهم الحيتان ؟ !! ..

لسنا سمكا فى الكويت فقط ... اننا سمك فى كل مكان خارج بلادنا ، ولست فى ذلك مغاليا أو مدعيا بل هى الحقيقة للأسف الشديد ...

أحمد الله أنى قضيت فى الكويت سنتين ولم أحسب على الحيتان أو على السردين ! ...

ما أكثر ما ننسى أن هدم الاكفاء النابغين هو فى الحق تقويض للسدود العاليات فى حياة الأمم والشعوب ...

ان فينا — نحن المصريين — كثيرا من الفضائل الخلقية والصفات الرفيعة النادرة ، بيد أننا حين نغادر بلادنا نتركها خلفنا فى الموانى والمطارات ؟ ! .

***

لا يعنى حديثى عن الكويت وأهل الكويت حديث العاشق الولهان ، لا يعنى هذا أن المجتمع الكويتى برأ من كل نقيصة أو خلا ناسه من ارتكاب الهنات ، فقد جل من تنزهت نفسه عن النقائص أو ترفع عن الهفوات ، بيد أن المشاهد فى سيرة الكويتيين أن من يكبو منهم أو ينزل عن طبعهم وخليقتهم ، انما هو فى

الواقع غير كويتى انزح الى بلادهم من هنا وهناك ، وأصبح بحكم الزمن — وقد لا يزيد عن عشر سنوات — يحمل الجنسية الكويتية ، وليست هذه أضالة فى الجنسية تجعله محسوبا على الكويتيين وهو يأثم بالفعل والقول ويعطى صورة غير صحيحة عن أبناء البلاد ...

فاذا وجدت بعد ذلك كويتيا أصيلا فرغت جعبته من خلائق مواطنيه ، فليس ذلك أمرا غريبا فى أى مجتمع ، فلكل مجتمع شواذ ، والشواذ فى الكويتيين قلة لا يقام لها حساب ...

أما الكويتيون الذين عشت معهم وخبرتهم ، فهم من أقرب الناس الى الاكتمال ، كلمتهم وثيقة واجبة الاحترام ... أمانتهم شىء يفوق حد الخيال .. لسانهم عف .. أدبهم جم .. يغلب على مجالسهم الجد ، والاعتدال فى الرأى ، قلما يقهقه واحد منهم أو يعلن عن سروره بحركات من اليد واللسان ، لا يعرفون الراحة ، بل الحياة عندهم عمل ، بل لعل العمل فى ضمائرهم عبادة واجبة الأداء ...

سيعجب بعض مواطنى من هذه الصورة التى أرسمها لأهل الكويت ، فقد زار القاهرة آلاف من الكويتيين ، ورآهم المصريون وهم يأخذون حياتهم مأخذا ناعما طريا ، فيه متاع وأى متاع ، ثم اذا صحوا من اللهو الخفيف أو الثقيل وتهيأوا للجد والعمل لم يرتبوا أمرا مع مصرى الا وثقوه باتفاق مكتوب

قد يسأل مواطنى : أين عبادتهم للعمل التى تحدثنا عنها والقوم يلهون بلا حساب ؟

وأين كلمة الشرف التى يقولونها فاذا هى ميثاق وهم لا يمضون فى معاملاتهم الا فى أضواء اتفاق مكتوب ؟

الصحيح أن الكويتيين يؤمنون بحكمة من قال : ان ساعة لربك وساعة لقلبك .

حياة الكويتيين فى بلادهم جد ثقيل واجتهاد فى قضاء الأمور ، والتفات كامل للمصلحة ، وعناية فائقة بالعمل ، لا يشغلهم عن السعى فى سبيل الرزق الوفير شاغل ، فاذا جمعوا وطرحوا ، وعرفوا مكاسبهم — وهى عادة شىء خيالى أو شىء قريب من الخيال — رءوا أن لأنفسهم عليهم حقا ، وأن واجبهم أن يبسطوا لذواتهم فرص الحياة الناعمة فى أى مكان يختارونه خارج البلاد !!

وسوف يبطل عجب مواطنى اذا علموا بالمآسى التى حدثت بيننا وبين الكويتيين اعتمادا على كلمة الشرف التى كان يظن أهل الكويت أنها سارية المفعول فى أى مكان ؟ ..

انهم — أقصد الكويتيين — لا يتفقون على عمل فى بلادنا الا بوثيقة مكتوبة ، وهم معذورون ، فقد وافق أحدهم على استيراد آلاف الاحذية من مصر ، فوصلت الصناديق الى الكويت ، يحمل نصفها أحذية والنصف الثانى قوالب من طوب ؟ ! ...

ودفع أحدهم آلاف الدولارات لشراء أثاث مصنوع فى مصر له رسوم وأوصاف ، فأرسل له أثاث آخر لا علاقة له بما اتفق عليه من رسوم وأوصاف ! ...

وتعهد كويتى لدائرة الاسكان بتوريد مئات من الحجرات ووقع عقدا مع حكومة الكويت التزم فيه بغرامة فادحة ان تأخر فى التوريد عن ستة أشهر ، ورفض الرجل أن يعامل الهند أو ألمانيا أو اليابان وفضل مصر لانها كانت فى حاجة الى الصعب من العملات ، فخلا به أصدقاؤه المصريون ، وأرسلوا له بعد سنة ونصف سنة ... العينات ؟ ! ! أما الأثاث كله فالقادر وحده الذى يحدد الميعاد ؟ ؟ ودفع الرجل الغرامات ...

وفى سبيل مصر لقى عشاقها المتاعب ، بيد أن الكويتيين لا يعرفون العشق الحرام ! ...

ومنذ ذلك التاريخ والتصدير للكويت مختل الميزان ...

منا من لا يفرق بين الكسب الحلال والكسب الحرام ... وأزعم مع ذلك أن بعض اجراءات التصدير فى حاجة الى مراجعة ، وتخفيف ما فيها من عوائق وعقبات حتى يستقيم النشاط التجارى مع الكويت ، فالكويت سوق لنا فيها أنصار وصحاب ، فضلا عن أنها سوق رائجة ولا ينافسها فى مثل هذا الرواج سوق عربية أخرى من سائر الأسواق ...

أنا رجل منظم — بكسر الظاء — غير منتظم — بفتحها — !؟
غير منظم فى كل أمر خاص ، وأحسن التنظيم فى كل شأن عام ...

بدأت حياتى (كاتب تملى) فى قصر العينى ، فلم أطق البقاء فى الوظيفة لأنها روتينية ليس فيها تنظيم أو خلق أو ابتكار

ثم عينت سكرتيرا لاتحاد الجامعة ، فكانت وظيفة تتفق وذوقى فى مطالع الشباب ، وتتلاءم وفهمى لنشاط الاتحاد ، اذ كنت عضوا منتخبا فيه دورتين متتاليتين ، لذلك نظمت لتلك الوظيفة القواعد والأصول بحس الفاهم للمحيط الذى يعمل فيه ، الواعى للعمل الذى نيط به

وبعد أربع سنوات من أداء هذه المهمة ، رأيتنى أروح وأجيء كسائر الموظفين ، فانتقلت الى وظيفة المعيد فى كلية الآداب أنا لا أطيق الروتين ...

وبقيت فى معهد الصحافة بكلية الآداب ثلاثة عشر عاما بين معيد وأستاذ أنظم فيه وأديره ، وألقى المحاضرات ، وأؤلف الكتب وأنشر المقالات وأذيع فى شتى الاذاعات ... كنت غارقا فى البحث والدرس كل هذه السنوات .

وحتى هذه الوظيفة الجليلة كنت أبغضها حين أرانى قد فرغت من كل جديد وأصبحت أكرر لتلاميذى ماسبق أن قلته بالأمس لهم ، وقد تحايلت على التبرم بها والسخط عليها بالاجازات العلمية ، فى أوروبا مرتين ، وفى أمريكا مرة ، وفى الشرق العربى

عدة مرات ، فاذا عدت ، عدت بجديد يربطنى بوظيفتى العتيدة ويشدنى اليها شدا ويفسح لى مجال التنظيم والابتكار ، ولولا الاجازات العلمية لما استقر حالى فى كلية الآداب ...

وذهبت الى جدة ، وساهمت فى انشاء أكبر مطبعة فى المملكة ، وأشرفت على اصدار أول مجلة علمية أدبية سياسية مستكملة كل عناصر الصحيفة المثالية ، فاذا هدرت المطبعة ، ونشرت الصحيفة على الناس ، ولقيت الرواج المأمول ، أحسست أننى لم أعد مستشارا للطباعة والصحافة فى تلك المؤسسة ، بل أصبحت موظفا كبيرا يروح اليها ويجىء منها كأى موظف كبير ، فعدت الى القاهرة دون أن أدرى ما ينتظرنى فيها من شئون وشجون

أعادنى الفراغ من التنظيم والروتين الى وطنى ، وأنا رجل متحرك ، الاستقرار يزحم عقله بالصدأ ويخلف فيه شعورا بالموت البطىء ! ...

وهنا فى الكويت — وقد طابت نفسى واستراح صدرى — كان يرجى أن يطول عهدى بهذا البلد الحبيب

كنت — فى الواقع — قد أديت ما يؤديه الخبير المندوب لعمل هام ومفيد ، وارتاح صدرى حين ختمت السنة الثانية بالمشاركة فى مراجعة المذكرة التفسيرية الخاصة بقانون المطبوعات والتى وضعها القاضى المصرى النابه عماد الدين الدكرورى ، وهى مذكرة تبسط لمن لم يفهم ، أو أراد ألا يفهم ، المعنى السامى الرفيع الذى حدا بأصحاب الشأن الى اصدار هذا القانون

ثم ارتاح صدرى مرة ثانية حين أخذت فكرة المجلة العربى طريقها الى التنفيذ ، وجاءت المقالات تترى من كل صقع ، وروجعت ونوقشت وبدا أن اقتراحى بانشاء هذه المجلة قد أصبح حقيقة ملموسة ، حينئذ رأيت أن أعود ، وان لحرمت مولد الصحيفة ، واحتفلت بذلك وأنا بعيد احتفال السعيد الذى ساهم بقسط فى عمل جليل

***

كان المصريون فى الكويت عدة مئات ، فى مقدمتهم أعلام لهم فى وطنهم شأن وشأو كالدكتور سعيد عبده ، وهو الأستاذ الجامعى والطبيب الكبير والأديب المعروف ، وكان الناس يخلطون بينى وبينه ، ولم أكره قط أن يختلط الأمر على الناس ، فقد كان الرجل يشرف وطنه فيما يصنعه للكويت

ليس فى مقدورى أن أذكر مواطنى الذين خدموا هذا البلد ، وليس هذا الفصل للحديث عنهم ، انما هذه ذكريات عن الكويت وأهل الكويت ، ولا يجىء اسم مصرى الا اذا فرض مقتضى الحال ذكر هؤلاء المواطنين

وعرفت فى الكويت من الشيوخ الصديق الحبيب الشيخ خالد العبد الله رئيس دائرتى الجمارك والميناء وابن الحاكم العام ، وهو شاب دمث الخلق ، سخى لا تعرف يسراه ما أعطت يمناه ، لا يفزع اليه قريب أو غريب الا ومسح ضيقه على طريقته التى لا يمكن لاحد أن يعرفها ، فذلك سر الرجل الحريص الذى يعمل

بحكمة نبينا العظيم حين يقول « ابق سر من أحسنت اليه » ...

وعرفت الشيخ جابر العلي ، وهو رجل ذكي فيه نباهة وملاحة ، ومن طبعه الكرم وحسن لقاء الناس ، وهو قارىء يهضم ما يقرأ في يسر وانتباه

وراقني أن أتعرف على الشيخ جابر الأحمد ، وهو شيخ انعقد الاجماع على رجولته ، وفرضت مهابته الاحترام على الجميع ، ذكي رفيق لا يفوته واجب نحو ربه ، وله بالله صلات المؤمنين الصالحين ، وهو ابن الحاكم العام السابق ، وهو يلي اليوم دوائر الحسبة والمال ، ومنذ ولي هذه المناصب استقام الأمر في المدخول والمصروف ، وعرفت الضبط والربط ، وبهذا وبغيره من صفات الانسان وجد الشيخ جابر الأحمد الصباح مكانه في قلوب الناس

وعرفت من رجال الادارة والكياسة ، مدير الشئون الاجتماعية صديقي حمد الرجيب ، وهو مفتتن بطبعه وحسه ، درس في مصر ، يجيد العزف ويخلق في اللحن ، ويعمل معظم الوقت في دائرة الشئون ، لا يفرغ منها الا ليعود اليها ، ويعجبني حمد الرجيب حين يرى خدمة بلاده في العمل المنتج المفيد ، لا في الجعجعة التي تصدر عن البعض دون وعي أو تفكير

ومن شباب الكويت الذين سرتني معرفتهم ، وراقني وجودهم في مناصب الدولة ، السيد أحمد عمر والسيد حمد اليوسف

بالمالية ، وعبد المحسن القطان فى الكهرباء والماء ، وعبد اللطيف النوينى فى الأمن العام ، وعلى المتروك فى الاسكان ورسمى الرجل الرقيق المهذب وعبد الرزاق البصير فى المطبوعات والنشر ، وعبد العزيز الصرعاوى فى الشئون

ولم أسعد بالتعرف الى كل أدباء الكويت وهم نخبة من شبابهم وصفوة من رجالهم ، قرأت لهم ما أرضانى وكشف لى عن مواهب تسر خاطر كل عربى ، وفى مقدمتهم الأساتذة عبد الله زكريا وفاضل خلف وسيف الشملان ومحمود توفيق أحمد وغيرهم كثير

ليس الكويتيون أهل نواص وأعتاب ، انهم قوم مؤمنون بالواقع ، خاضعون للمكتوب ، لا يقتلهم الحزن ولا يستخف بهم الطرب ، ولهم فى حياتهم الحكم والأمثال البديعة الرائعة ، وأجمل ماواجهنى وأنا فى صحبة مدير المطبوعات فى طريقنا الى سمو الحاكم العام الشيخ عبد الله السالم الصباح أن قرأت حكمة على باب قصره تقول (لو دامت لغيرك ما وصلت اليك)

وكنت أظن أن هذه الحكمة قالها الأمير الذى تنسبونى اليه ، فهو رجل متواضع لم تغير الامارة من طبعه العربى الأصيل ، ولم يؤثر عنه التفات الى مظهر أو رغبة فى دعاية أو حرص على منصب فكل ذلك عنده عرض من أعراض الدنيا والرجل فى غنية عن الدنيا وما فيها من متع وما وراءها من خبايا وأسرار

لم تكن الحكمة لسمو الحاكم العام ، بل الحكمة منحوتة على القصر منذ قديم ...

ونحن فى الواقع نتجاوز الحق ونسرف فى التجاوز حين نسمى المكان الرسمى للحاكم العام قصرا ، فهو شىء يشبه البيوت القديمة فى حى الأزهر أو الكحكيين ، وهناك ألف بيت فى الكويت يمكن أن يطلق عليها لفظ القصر أما المكان الذى يجلس فيه الحاكم العام فلا يمكن أن يعتبر فى ذمتى قصرا أو يحسب على المنيف من الدور والقصور

وأرجو ألا ترهبك كلمة الحاكم العام أو قولهم سمو الأمير ، فكل هذه ألفاظ ليس لها بين الامير ومواطنيه هذا المدلول الذى يدور فى أذهان من قست عليهم نظم الحكم من ملك وأمير ، فالحاكم العام يلقاك أى وقت تشاء ، فى السادسة صباحا أو فى الظهر أو فى أية ساعة من نهار ، فليس لبابه ستور وليس لمجلسه قواعد أو أى لون من ألوان الابهة والظهور ...

وهكذا تقوم العلاقة بين الكويتيين وجميع شيوخهم وفى مقدمتهم الشيخ الكبير ، والغريب لا يستطيع أن يفرق فى أية جلسة عامة أو خاصة بين شيوخ الكويت ومواطنيهم لما يسود مجالسهم من روح المودة والألفة ، وهى سمات المجتمع الكويتى فى كل وضع وفى كل حين

والحكومة الكويتية تؤثر مواطنيها ايثارا لم يعرف له مثيل ،

ولا يمكن بحال أن يؤذى كويتى من أجل غريب ، ولا يعنى هذا أن يضيع على الغريب حقه أو يساء الشرفه وكرامته ، فالغريب محصن اذا كان له عند كويتى التزامات وحقوق ، ولكن الحكومة لا تتردد فى أن ترحلك بعد ساعات ان أسأت الى كويتى — مهما يهن قدره — بقول خفيف أو قول ثقيل ؟ ...

ان المثل الحى على قدرة الانسان فى تحضير الصحراء تجده فى الكويت ، اذ شجر القوم شوارعهم بعد أن شقوها فى قلب الرمال ، وزفتوها كما يقولون ! ومضوا بها فى نعومة الثعابين وأحالوا ماء الخليج الأجاج الى شراب عذب مستساغ وجعلوا بيوتهم فى حمارة القيظ جنة بهوائها المنعش الرطيب ، وعاشوا كما يجب أن يعيش من يحسن التحدث بنعمة ربه ولا يبخل بالاعلان عنها علامة الرضاء والعرفان بالجميل ...

وأنت تزور الكويت فتذهلك حركة الهدم والبناء ، وكم مرة زرت الكويت فتهت فى شوارعها ، وتهت فى ميادينها ، مع أننى لا أغيب عن الكويت الا شهورا قليلة ولى علم بكل حارة وزقاق ، ذلك أن القوم يخلقون فى مدينتهم كل يوم جديدا ويجملونها تجميلا ويشيدون العمارات ذات الطوابق الكثيرة التى تبلغ عشرة طوابق أحيانا ، وفى شارع الجهرة اليوم قامت عشرات العمائر ، وفيه أكثر من ثلاثة آلاف حانوت جديد ، فضلا عن آلاف الفيللات الحديثة التى أنشئت فى ضواحى الكويت ، فى

السالمية والفنطاس والفحيحيل وفى غيرها من الاطراف

وليس فى الكويتيين تزمت ولا تعصب ، لا فى الدين ، ولا فى النظر الى تناول الحياة .. ان المسيحيين فى الكويت تلقاهم صدور الكويتيين الرحيبة ، وتأنس اليهم نفوسهم السمحة ، وبلغ التسامح من الكويتيين أن أقيمت على أرض الحكومة كنيسة نالت من اعانات الدولة قدرا غير يسير حتى بدت من أكبر وأفخم الكنائس فى محيط الوطن العربى الكبير

وفى الكويت عدة سينمات كأفخم ماعرفنا من دور السينما فى العالم ، واحداها تتسع لعدة آلاف مشاهد ، ذات طوابق تبلغ سبعة طوابق ، وهى شىء جديد فى مربعنا العربى وليس لها نظير الا فى نيويورك

ويكاد لا يكون فى الكويت فتاة أمية ، فكل بنت تتعلم ، وهن وان كن يحتطن خوف قالة السوء ، ويحافظن على العباءة فى الطريق ، الا أنهن فى بيوتهن ، وفى مدارسهن يأخذن الحياة كما تأخذها البنت فى البلاد المتحضرة ، واعيات ، فاهمات حقوقهن ، قادرات على تناول الأمور فى فراسة المرأة التى تزين عشها بنتا أو زوجة أو أما ، ولن تضيرها عباءة الطريق ، ولن يزعجها التحفظ الشديد أو الانصات بالمودة الى أى تقليد قديم ...

وجو الكويت شىء عجيب ! ...

فى الشتاء وما أقصره ! قد تنخفض درجة الحرارة فى الليل الى

مادون الصفر ، وقد ترتفع فى النهار الى درجات ثلاثين !

وفى الصيف ، وما أطوله ! يكاد يحس المرء حرارة الشمس قبل طلوع الفجر ! ! ويكاد يظنها فى السمت حين تبزغ من بعيد ! ويظنها فى السمت حتى تغيب !

والرطوبة من مقومات الجو فى الكويت ، هى معك فى جسمك وثيابك وصدرك ! •• ومن نعم الله أن المقيمين يعتادونها ، والا كتمت أنفاسهم وعزت عليهم الحياة ، ودمرت أعصابهم تدميرا •••

ومع هذا الجو الخانق المرطوب ، نجد أعصاب الكويتيين مستريحة ، لا تند منهم عبارة خارجة ، ولا تفلت كلمة نابية ، ولا يصدر عنهم تصرف معيب

أمضيت سنتين فى الكويت ، دخلت فيها بيوت الأمراء وبيوت الخاصة والعامة ، ومضيت فى الشوارع والحوارى والأزقة ، فلم أشهد خلافا فى البيوت ، ولا معركة فى الشوارع ، وأدهشنى أن يعيش مجتمع بلا معارك ••• كنت أريد أن أرى معركة واحدة وأدرس فيها على الأقل الطريقة والاسلوب !!

ورأيت ازدحاما من بعيد ، وفهمت أنه خلاف بين اثنين شديد ، فأقبلت اقبال المستطلع الذى عثر على شىء فريد ، بيد أننى رجعت فى خيبة تتعثر فقد كانت معركة بين غريبين فى الكويت ؟ !

وقلما تنتهى أية خصومة بين كويتيين الى المحكمة ، فذلك شىء يخالف العرف المأثور عنهم ، وحدثنى فى هذا الشأن صاحب منهم

فقال : ان الاقدمين أقاموا تمثالين على باب المحكمة لمتقاضيين مزقت ثيابهما ، أحدهما للفائز وثانيهما للخسران ثم قال : ونحن قوم لا نكشف عوراتنا ، ونحب أن تكون ثيابنا دائما نظيفة بيضاء غير مهلهلة ؟! ...

ولم أشهد فى الكويت جنازة ... ويبدو أنه لا يوجد للموت هناك طقوس ، فقد كنت أسمع فى مطلع الصبح أن فلانا مات ، فاذا سألت عن موعد الجنازة ، قيل : لقد دفناه !

قالها صاحبى فى السابعة صباحا ، ولا أدرى كيف مات فى الصبح ودفنوه ونحن لم نبدأ بعد الصباح ؟!

وحضرت دفن والد صديق ، ورأيت مقابرهم منشورة فى صفوف ، وليس عليها علامة من العلامات ، ولا تدرى من الساكنون هذه الحفر ، فان حفرة الأمير بجانب حفرة الحقير ... الجميع سواسية عند الموت ، ولا عجب فهم سواء فى الحياة ، وانهم لقريبون من التسوية فى الدنيا والآخرة ، وانه لمجتمع فريد ، أمواتا وأحياء ! ...

الفرق بيننا وبينهم ، أن الوثنية لا تزال تمدنا بمعاييرها ونحن نودع موتانا ، الموت عندهم حق ، وعندنا مظهر وكارثة ، فعندهم يلفون فقيدهم فى خرقة ، وفقيدنا نكفنه بالبفتة والشاهى ، ونغسله بماء الورد والعطور ، ونجمل نعشه بالحراير المزركشة كأنه ذاهب لحفلة عرس أو حفلة كوكتيل ! ونمضى من خلفه ومن قدامه ،

يسبقه حملة القماقم وحملة الورود ، وقد تؤجر له الموسيقى والبنود ، ثم نعود فنفاخر بالصيوان حيث يلتقى الصحب على القهوة وسيرة الناس !

الموت عندنا كارثة لأنه باهظ التكاليف ...

وأفراحهم كأحزانهم ، شيء سريع خاطف ، الا فى بعض أوساط الخاصة حيث البذخ ، والاعلان عن هذا البذخ بشتى الاساليب .... وكل الناس مدعوون الى ليلة العرس بلا بطاقة أو رسالة أو حديث تليفون !

هم مجاملون فى الهناءة مجاملتهم فى العزاء ....

الكويتيون أهل اقتصاد فى أفراحهم وأحزانهم ، وهم فى الحق مقتصدون ، لا يبذرون ، حتى انهم يبدون للغريب بخلاء حريصين فى غير موجب للحرص وهم أصحاب ملايين !

ومنهم بخلاء ، بخلاء الى أقصى الحدود ، ومنهم جوادون جودا مابعده جود ، وأكثرهم وسط ، الحذر يغلب على طبعهم ، والحذر صفة دعت اليها كتب السماء ونصح بها الرسل والأنبياء

والكويتيون مؤمنون ولهم آذان مصغية لكل نصح مفيد ! ...

كان يزورنى فى الكويت ، أعيان الكويت ، أسرة الحميضى ، السيد يوسف الحميضى عميد الأسرة وأولاده ، وهو رجل وقور ، قارىء ، حلو الحديث ، يحب مصر ويؤثرها على بلاد الدنيا ، وأسرة مساعد الصالح ، والمطوع ، وهما فرعان من أسرة القناعى ،

بعيدة الصيت ، وأسرة الغانم واسعة الثراء والجاه قديمة قـدم الكويت ، وأسرة مهدى حبيب ، وهو رجل وسيم كريم ، مجاهد، صنع تاريخه ، بجهد المكافح الذى افترش يوما أديم الأرض ، وتبلغ بالتمر ، وكبا فى جهاده أكثر من مرة ، ثم أنصفه الله فاذا هو فى الصدر عنوان المجاهدين ، ثم أسرة الملا وفيها الكثيرون من الشباب الغر الميامين

عشرات من الرجال نشأت بينى وبينهم (معرفة) وسمت هذه (المعرفة) على مر الزمن ، فى الكويت وفى القاهرة ،حتى بلغت مرتبة الصداقة التى تحس فيهـا الصـديق الحبيب ، الوفى فى الشدة والرخاء ، الشهم الذى تجده دون أن تدعوه او تفـزع اليه . .

هذه ملامح المجتمع فى تلك البقعة الصغيرة التى دللوها فسموها الكويت ، وانها لجديرة بالذكر والتدليل ، لأنها شىء أصيل فى سيرة الأعراب حين يحسب الفضل ويوزن الخير عبر الاجيـال والسنين

تحت الطبع

١ ـ روز اليوسف (سيرة وصحيفة)

٢ ـ جريدة الأهرام (تاريخ وفن)

٣ ـ زعيم من الجزيرة

٤ ـ ألغـ.ـياء الطباعة

٥ ـ ثلاث قصص فى كتاب :

جيجى بنت الحلاق ـ صديق العائلة ـ ٣٣ شارع أبو الجهاد

الناشر
سجل العرب ت ٤٩٩٩٩
مكتبة الآداب ت ٤٢٧٧٧

١٩٦٠



٢٠